المربع الأسود

- **المربع الأسود**
- **رواية**
- **بلقيس حميد حسن**
- **الطبعة الأولى 2019**
- **الإخراج والعمليات الفنية: منير الرفاعي**

- **دار كنانة للطباعة والنشر والتوزيع**

دمشق ـ سورية

خليوي: 0933452275

بريد إلكتروني: kenana.p.h@gmail.com

- يمنع طبع هذا الكتاب أو أي جزء منه بأي طريقة من طرق الطبع أو التصوير والنقل والترجمة والتسجيل المرئي والمسموع والحاسوبي وغيرها من الحقوق إلا بإذن خطي من صاحبه.

بلقيس حميد حسن

المربع الأسود

رواية

٢٠١٩

الإهداء

إلى ولدي الحبيبين مهند وكفاح

إليكما.. يا أجمل ما كتبتهُ الحياة لي..

شكرا لأنكما جئتما في عزّ الفقد والخوف، وكنتما الفرح

الوحيد لي في حروب ومعاناة بيروت الجمال والوجع..

مقدمة

وددت أن أخبر قارئ روايتي هذه أن ما كتبته في روايتي الأولى "هروب الموناليزا" من سيرة ذاتية وما أكتبه هنا، لا يشكل ذرة مما في ذهني من الذكريات والأفكار التي تراودني وتستعبدني لأرويها للناس، وسأرويها ما حييت، لا لأن الرواية متعة بالدرجة الأولى، وهدف أول من أهدافها، إنما أكتبها لشعوري بأنها رسالة لابد من نقلها بأمانة للأجيال، وهي أحداث لفترة زمنية هامة جدا في عالمنا العربي، إذ أثرت على حاضره وما زالت تؤثر في زمن بات اللعب بِالعالم من قبل قوى الظلام مكشوفا ولا لبس فيه، كما أنني أشعر بالشكر والعرفان لمن وقف معي في المواقف الصعبة والخطرة، أو وقف مع قضية عادلة بالعالم برغم اختلاف الأماكن والانتماءات، بالتالي أنا أكتب رسالة وفاء لمن ضحى وأعطى بصدق، في عالم أقصى ما نتمنى منه هو السلام أو كما قال الكبير البير كامو:
"لسنا ننشد عالماً لا يُقتل فيه أحد، بل عالماً لا يمكن فيه تبرير القتل...

لن أكتب رواية للتباهي ووضع اسمي بجانب الروائيات، ولا للتسابق بالحصول على شهرة أو جائزة أو مال، إنما هو وجع لابد من تسطيره على الورق لراحة الضمير ولقول الحقيقة التي سكت أو يسكت عنها اليوم غالبية البشر، عدا ذلك فأنا لا أدعي القدرة على التغيير بل اكتفيت بكوني محاولة من محاولات التحرر التي تشبه محاولات الطيران، بل هي ذاتها، وغالبا ما يقع عاشق الطيران من شاهقٍ وتنكسر رقبته، لكنه برغم هذا يكون سعيداً بشرف المحاولة ذلك لعظمة المراد وصعوبة الهدف.

كنت في هروب الموناليزا قد استعرت اسم الصديقة الشهيدة موناليزا أمين، وهي معلمتي في النضال من أجل الحق، فاختلط على بعض القراء ونسب بعضهم سيرتي للشهيدة.

في هذا الكتاب سأروي سيرتي الذاتية من دون استعارة وبالأسماء الحقيقة، أما القصص التي أرويها عن النساء الغريبات فهي لا تمت للحقيقة بشيء وإن كان هناك تشابه أسماء فهي مصادفة لا غير..

بلقيس

2019-3-3

العبور

برغم كل الخوف الذي يزلزلني، أحسست بنشوة الانتصار وأنا أعبر النفق الممنوع....

اليوم هو 6–3–1979. أول صباح لي في دمشق..

كان السيد موريس رجلاً كبير السن وقوراً، ومحامياً معروفاً، وعضواً في مجلس الشعب، وعضو مكتب سياسي في الحزب الشيوعي السوري، ملامحه تدل على الطمأنينة والحكمة، وكان هادئاً خفيض الصوت يتكلم ببطء كمعلم، تدل شخصيته على رفعة الأخلاق بحيث تشعر أنك أمام أب يدعوك عمره إلى الثقة به وتصديق كل ما يقوله وعدم معارضته بشيء، هذا ما شعرت به منذ أول عشر دقائق لمرافقته، ركبت سيارته الفخمة المكتوب عليها مجلس الشعب، شعرت بأمان لا حدود له.

بعد أن سألته عن زوجي، وأنا قلقة عليه، عرفت أنه في لبنان، وأن عليَّ الانتظار ليرتب لي الرفاق طريقاً للالتحاق به..

الأحداث كلها جديدة من حولي، الأماكن، وجوه الناس، القرارات التي ستكون بخصوص حياتي.

كل شيء لم أعهده ولم أعرفه من قبل، وفي خضم هذه الأمور يتحرك الطفل في بطني، فأعرف عندها أن الحياة مستمرة برغم كل المتغيرات، والطفل هو الشيء الوحيد الذي يعيش معي كأكثر من يعرفني هنا، إذ إن به نفحات العراق وكل ما كان لي في حياتي هناك، حيث ولدت وترعرعت، وحيث احتفظت روحي بصور أبي وأمي وأخوتي وأحبتي جميعا..

وبرغم كل ما يجري، كنت أحاول أن أتعايش مع الجديد، وأطمئِنَ روحي بأنني بخير، وسيكون الآتي أفضل، على الأقل لطفلي، فأنا ما عدت أفكر بحياتي التي غالبا ما أشعر أنها زائدة، أو غريبة، أو أنني نجوت بمعجزة حينما أقارنها مع من استشهد بالتعذيب داخل سجون العراق..

أنا في وضع جيد هنا في سورية، وقد نجوت..

هذا ما كنت أردده وأبتسم، ليرى الآخرون أنني امرأة جذلى بالحياة، متجاوزة كل أزمة..

الآن أنا هنا، وفي موقع آمن، وبلا ملاحقة، وهذا موريس شفيعي ساعة الشدّة بكل ما يصيبني، فلأوقف مخاوفي..

أخذني السيد موريس ليريني سوق الحميدية القديم ويسألني:

يا بنتي هل تحتاجين شيئاً من ملابس، فالملابس في هذه السوق رخيصة.

قلت له: كل شيء عندي ولا حاجة لي إلى الملابس. قلت في سرّي إنني ما تهالكت يوماً على ملابس، ولا أحببت الدوران في الأسواق،

حيث قريناتي يغريهن الذهب والموضة وكل ما هو جديد ومغرٍ، أنا تغريني الكتب وشراؤها رغم بساطة إمكانياتي..

ينظر السيد موريس إلي بتعجبٍ وإعجابٍ أيضاً وهو يردد:

أنت شابة صغيرة وحلوة!

لم تشكل كلماته أي خوفٍ بداخلي، لأن وجهه الخيّر وملامحه، تدل على الاحترام وتبعد عني أية فكرة خائفة.

استمرت علامات الاستفهام تنتشر على وجهه الذي غزته التجاعيد، وكأنه يقول بسرّه: حرام عليك أن تعذبي نفسك بنضالٍ، وتشرد، وأخطار، وأنت ما تزالين في بداية العمر..

سرنا في تلك السوق المقببة السقف، الباعة يرحبون بنا محببين لنا بضاعتهم، فمن يعرض الملابس البراقة، ومن يملأ مقدمة المحل بأعمال نحاسية غاية في دقة صناعتها اليدوية الجميلة، وذاك الذي يستعرض ما هو مرصع بأصداف البحر كطاولة طعام صغيرة أو عود موسيقي أو علب مجوهرات.

كل شيء بدا جميلاً، لكن الذي لفت انتباهي هو نساء يرتدين معاطف سود مع كفوف بذات اللون، والطقس لم يكن بارداً إلى حد يحتاج لهذا، فسألت السيد موريس بتلقائية:

لماذا ترتدي النسوة كل هذا هل هن بردانات؟

ضحك السيد موريس وأجاب:

إنه حجاب.

أنتم أهل العراق لا تعرفون سوى العباءة الحريرية الخفيفة كحجاب، ولكل بلد طريقته بالتحجب.

صمتُّ خجِلةً من سؤالي الطفولي وعدم معرفتي.

سرنا بالسوق الزاخر بكل أنواع البضائع البراقة والجذابة، ولكن كعادتي

لم أنبهر بكل ما أرى، وكأنني أنتظر عالما آخر غير مألوف، عالما لا يعرفه أحد لأنبهر به.

لازمتني صفة اللامبالاة بكل الأسواق التي أراها، وبالرغم من أنني سافرت ورأيت بلدانا أخرى انتظرت منها الدهشة، لكنني لم أندهش بكل الأسواق التي مررت بها في حياتي، وقد يكون سبب عدم دهشتي هو ذلك الحلم الذي يتكرر عندي.

الحلم بتلك السوق المدهشة التي تقع تحت سفح جبل أخضر، وذلك الجسر الواقع على نهر عريض جداً، يتهادى أزرق على الجانب الآخر منه، حيث ينتهي الجسر.

كانت السوق بحلمي مثل كهف داخل الجبل الأخضر، وقد شكلت بهواً حجرياً كبيراً، شاسعة المساحة، عالية السقف منحوتة بطريقة خلاّبة، جدرانها حجرية تبزغ منها صخور ملساء براقة، بأشكال هندسية جميلة ومتناسقة، تصطف على جانبيها محلات تجارية، طالعة من الحائط الجبلي كما تطلع الحوريات من بحر، بأبواب شكلت أقواساً رائعة البناء، كل قوس كبير يلتصق به قوسان أصغر منها وأجمل زينة وبريقاً، تطغى عليها ألوان حجرية بيضاء مبهجة

وأقرب إلى لون الفضة، أرى أمام المحال التجارية نساءً بائعات رشيقات، مرتديات ملابس حريرية وشالات تتسدل على أكتافهن وظهورهن – كما الراقصات –مع شعورهن الطويلة المثيرة.

كما أرى في سوق أحلامي تلك رجالاً باعة بوجوه طيبة، نورانية، يبتسمون غالباً بفرح، ملابسهم فضفاضة بألوان زاهية لم أر مثلها إلا بالأحلام، يفترشون الأرض، يعرضون بضائعهم التي غالبا ما كانت من الحليّ والمجوهرات أو الخرز اللامع كعيون الهررة اللامعة بالليل، أو تكون من العطور الأخاذة بشذاها وأوانيها الزجاجية الملونة أو الشفافة، أواني رشيقة بأعناقٍ طويلة مرصعة بالياقوت والزمرد أو اللؤلؤ، وبأغطية مزركشة مصنوعة من النحاس أو الفضة.

تتدلى من سقف السوق مباخر كبيرة كالثريات، وتطلق عبقاً رائعاً ما شممته في الحقيقة أبداً، عبقاً يملأ تلك السوق السحرية المضيئة التي أسرتني دون سواها.

لا أدري لماذا يتكرر عندي هذا الحلم، الغامض، الفاتن، الملحاح.

صرت كلما أذهب إلى بلد تراني أبحث عن شبيهة لتلك السوق، وذلك النهر قرب سفح الجبل الأخضر، ولم أجده حتى الآن، لذا عجزت عن الدهشة بعد رؤيتي ذلك الحلم المتكرر.

سرت مع السيد موريس حتى نهاية السوق، حيث بلغنا دكاكين تبيع كتبا دينية، مرصوفة على بعضها في أبواب تلك الدكاكين، أغلبها يتجمل بزخارف قرآنية وآيات بلون أخضر أو لازوردي، وها هو باب الجامع الأموي الشهير يفتح ذراعيه.

ارتديت في باب الجامع عباءة، كما هو مفروض من قبل القيمين عليه، ولا أدري لماذا عباءة سوداء كما هي مستعملة عند أهل العراق.

ومن قرر هذا اللون؟

دخلت الجامع لأرى البناء الهندسي البديع، تلك الأقواس والقباب التي أبدعتها يد القدماء رغم بساطة أدواتهم حيث لا كهرباء، ولا رافعات، ولا قاطعات حجر أو خلاطات اسمنت سهلة كما هي في الزمن الحالي.

طيور الحمام الآمن في باحة الجامع والآيات القرآنية التي طرزتها الزخارف الأنيقة على الجدران، تجعل المكان زاخراً بروح الفن الذي غادرنا واستبدلناه بفن حديث لا يشبهه.

وكعادتي حينما أرى مكاناً أثرياً، أشعر بانقيادي لذاك الزمن البعيد، حيث الفن حرفة العامل البنّاء وهي ليست حكراً على الفنان كما الآن، حيث لم يكن الفن محنّطاً في معارض للتباهي أمام النخبة وبيعه بأثمان لا يستطيعها إلا الأثرياء.

شعرت بأرواح القدماء حية بآثارهم، لمساتهم ما زالت تمنحها النبض والحرارة رغم الزمن.

المصلون يفترشون تلك الطنافس الفارسية البديعة والكبيرة، متجهين صوب القبلة، مشكلين انسجاماً رائعاً مع قباب المسجد الذي يدخل السكينة والهيبة للروح.

طغى علي شعور النشوة البريئة، أحسست بالصعود بلا أدنى جهدٍ أو مشقة، طافت عيناي بزوايا المسجد، سرت به، تفحصت فنونه ونقوشه الدقيقة، وفسحات المصلين فيه.

لم أشبع بعد متعتي بالجمال الهندسي البديع، ولا من الراحة النفسية التي أحسستها في باحة الجامع ورؤية الحمام الذي يلتقط حبات طعامه بخفة ومرح، ولم أرغب بالصحو من إحساسي بعالم الأمان الذي يعكسها فناء الجامع بعد، وإذا بي أمام محراب أو مذبح كُتب عليه:

هنا رأس الحسين بن علي!

وكمن يصحو من حلم جميل، اعتصرت الجملة هذه قلبي، رأيت بتلك اللحظة رأسا مقطوعة، ومحمولة على رمح، تقطر دماً، ووجهاً يضيء بالبراءة والهيبة، وقد أكون سمعت أنيناً آتياً من التاريخ.

عجباً!

كيف يكون هنا رأس الحسين ونحن نعلم إنه في كربلاء

نظرت للمحراب، غبت قليلاً في أسئلتي وأنا أفكر كيف يدفن رأس مذبوح هنا. استعدت الفكرة التي ترددت في تاريخنا حتى صارت طقسا سنوياً أو أسبوعياً في بعض مناطقنا، طقساً يحكي قصة الفاجعة ويستغرق حياة ملايين الناس ليبقيهم عند ذلك التاريخ حتى الآن.

أي تاريخ مخيف، ومحيّر، ومربك هجم عليَّ تلك اللحظة!

بقدر ما أنني تخلصت من تأثير الدين على وعيي، لكنني أن أرى رأسا مقطوعة في أي زمن، حتما أشعر برعب ورفض لهذا الفعل الوحشي.

من مفكرتي (I)

ترعبني فكرة قطع الرؤوس وسبي النساء التي نسمعها ونقرأها في تاريخنا العربي، وما تخيلت يوماً، أنني سأعيش بزمن أسموه ربيعاً عربياً، وأرى في كل يوم على شاشة التلفزيون رؤوساً مقطوعة وسبايا عراقيات وسوريات، يتم بيعهن بسوق النخاسة بزمن عربي هو الأسوأ من كل الأزمان وأبشع.

استفقت على صوت السيد موريس وهو يسألني منقذاً إياي من زمن بعيد شهد في هذا المكان أحداثاً مروعة عاشت محفوظة حتى اليوم في أذهان الملايين:

هل تريدين أن تذهبي إلى دمّر والهامة التي تتغنى بها فيروز؟

نعم

أجبت طاردة عني كل تفكير ب تاريخ مخيف، حفظناه في الذاكرة..

خرجنا من الجامع مارين مرة أخرى بالسوق الشعبية الجميلة المزدحمة ببضائع محلية قلدت الصناعة العالمية بدقة مذهلة واحتفظت لنفسها برخص الأسعار.. انها سوق الحميدية..

وهذه سورية الجميلة بأصالتها، وجمالها الطبيعي، وسهولتها الممتنعة.

ومرة أخرى أيضاً مررنا على النحاسيات الشامية المصنوعة بمهارة شرقية جذابة، بأثاث وأدوات من الخشب المرصع بأصداف البحر حتى كأنها تحمل نداء مسافر عائد، أو عطر عاشقة تنتظر على الشاطئ، أو دمعات من منديل وداع..

كان موريس يعاملني كابنته، ويحيطني بدفء أبوي رائع.

قال: حتما أنت جعت الآن، فلنذهب للغداء

صعدنا إلى السيارة وكلما نمر بمكان يسميه لي السيد موريس ويعطيني نبذة عنه:

إنها دمشق القديمة التي لا تزال تحتفظ بالكثير من الأقواس والأعمدة ال تاريخية الشامخة منذ أن كانت حاضرة الدنيا ومركز الخلافة الأموية.

حدثني السيد موريس عن دمشق كما الدليل السياحي، ورأيتها بكل حواسي، متحفاً قديماً حديثاً، زاخراً بالحياة وألوان الزمن الجديد.

صار صوت السيد موريس ينقلني بين أزمان عدة

هنا قصر الوزير العظم بجانب الجامع الأموي، تراث يمثل تاريخ بلد وتقاليده، قصر مليء بالحياة والفن عبر تماثيل الشمع التي تملأ الغرف بملابسها التراثية وأدوات العيش وأساليبه عام 1930.

هنا ساحة المرجة، قلب العاصمة ومركزها القديم، حيث قربها من الجامع الأموي، في هذه الساحة أعدم الاستعمار الفرنسي عدداً كبيراً

من الثوار الوطنيين، وهذا نصب كبير شامخ لمحاربين، يحيطهم سياج يتوسط الساحة يمثل التحدي والثورة.

قادني السيد موريس بسيارته إلى ربوة دمشق، حيث قاسيون يحيط بها كما السوار للمعصم، فيوقد قريحة الشعراء.

أوقف سيارته، صعدنا إلى مطعم اسمه "القصر" يطل على ساقية ماء تصبح آسنة في بعض مواقعها، أشار لها قائلا انظري إننا نجلس على بردى.

صدمت أن يكون بردى الذي هو في ذهني نهر عظيم، هو هذا الذي أراه الآن. قلت هل تمزح أم انه فرع منه؟ قال:

لا، هو كله، لكنكم أهل العراق تظنونه كدجلة والفرات لهذا تصدمون عند رؤيته، والتفت إلى حيث مجرى النهر محدثا إياي بهدوء أكثر: إنه نهر صغير ليس كما تخيلتموه، إذ تغنى به الشعراء فرسخوه في الأذهان نهراً عظيم الحجم، لكنه عظيم يا ابنتي بقيمته، و تاريخه، وحبنا له، وليس بحجمه..

كل جملة من كلام السيد موريس تزيدني معرفة، وفهماً للحياة..

جلسنا للطعام وسألني السيد موريس بينما كانت نظراته محتفظة بدهشتها لصغر سني:

أنت صغيرة على النضال متى بدأت قصتك مع الحزب؟

صرت أشرح له كل ما مر بي، منذ تمردي الأول وقراءتي لكتب ممنوعة من أحد أقاربي وأنا في عمر الثانية عشرة، وعنادي لأهلي، وحرقهم للكتب الماركسية التي كنت أستعيرها من معارفي وأقربائي،

إلى تهديد أمي لي بأنها ستقتلني مسمومة إن لم أتوقف عن قراءة هذه الكتب الخطرة التي تقود إلى الهلاك، إلى إضرابي عن الطعام في بيت أهلي محاولة لتغيير نظرتهم لي كإنسانة تريد أن تختار الفكر الذي ترغب به وتؤمن..

حدثته عن التنظيم النسائي الذي كنت أعمل به وأقوده بعد ذلك في المدينة، عن التحديات التي واجهتها من السلطة التي تراقبني وتحرض أهلي علي لتقييد حريتي، وكيف أن والدتي ولمدة شهرين أثناء العطلة الصيفية صارت حينما تخرج تقفل الباب علي كي لا أحضر اجتماعات التنظيم السري، وكيف كنت أهرب من خلال أسطح الجيران إلى المكان الذي نحدد به الاجتماع لأعود من أسطح الجيران أيضا.

حدثته كثيراً عن هموم الفقراء كما رأيتها، والناس، والسجناء، وعن عنادي في الزواج من رجل يساري حين رفض أهلي فكرة تزويجي وأنا ما زلت طالبة في الثانوية..

أنصت موريس إلي بشكل رائع، وشعر بكل ما قلت، ثم قال وهو ينظر إلي بإعجاب:

هل تعرفين أنك مناضلة عنيدة رغم صغر سنك؟

شعرت بالخجل من نعتي بالمناضلة، ثم أضاف:

إنني تنظمت بحزبكم في العراق كأول تنظيم عرفته بحياتي؟

كم أحرجني تواضعه واهتمامه، لكنني عجبت مما قال وسألت باستغراب:

كيف؟

قال:

كنت أعمل معلماً في العراق نهاية خمسينيات وبداية ستينيات القرن، في ناحية الرفاعي التابع للواء الناصرية، بقيت هناك سنوات طويلة أكثر من ست سنوات، حيث تعرفت إلى الشيوعيين وكانوا أصدقائي فتأثرت بأفكارهم، أعطوني كتباً ممنوعة فلسفية وسياسية، آمنت بما يطرحون فصرت معهم بالتنظيم السري، ولكن دعيني أحدثك عن أمور في حياتي حصلت لي بالعراق ولن أنساها

قلت وأنا أنظر إليه بإجلال الأب:

أنا سعيدة بالتعرف إلى مناضل كبير مثلك

قال وأنا فخور بشابة شجاعة مثلك ثم أخذ يسرد حياته في العراق قائلاً:

كنت أنافي تلك الناحية، المسيحي الوحيد، فالجميع كان مسلماً فيها، حينما أذهب إلى المقهى، وأطلب شاياً، أرى أن صاحب المقهى يتكدر من وجودي، يتكاسل بتلبية طلبي، بعدها عرفت من أصدقائي أنه بعد خروجي من المقهى يكسر الكأس "الاستكان باللهجة العراقية" الذي شربت منه وكلما ترددت على المقهى كسر كأساً، وهذه خسارة له، لهذا ما كان يرتاح لمجيئي، بل تغتمّ ملامحه وتظلم، لاعتقادهِ أن المسيحي نجس ولا يجوز لمسلم أن يشرب بذات الكأس من بعده.

– عجيب وكيف انتهى الأمر؟ سألته باهتمام

–حينما رأيت أن الأمر مزعجٌ لصاحب المقهى وهي المقهى الوحيدة في الناحية تلك، حيث أجلس فيها وأتحاور مع المعارف، فكرت ملياً أن أجعلهم يعرفون أن ما يقومون به خطأ ولا علاقة له بالدين الإسلامي.

كيف؟ ماذا فعلت؟ سألته مستعجلة معرفة القصة المثيرة

– ذهبت إلى شيخ الجامع في الناحية، وهو رجل يحترمه الجميع ويجلّه، رحب بي الرجل واستضافني بكرم معروف عن أهل العراق، تحاورنا في مسائل كثيرة حتى سألته شيخنا هل إنني نجس بنظر الإسلام؟

ضحك الشيخ قائلا من قال لك ذلك؟ وأردف:

أنت كتابيّ، والكتابيّ يأكل ويشرب معنا.

إذن يا شيخنا أنت مدعو عندي في يوم الجمعة للغداء.

وافق الشيخ وشكرني.

ذهبتُ في يوم الجمعة إلى القصاب، طلبت منه بصوت عالٍ يسمعه الجميع:

أرجوك أن تنتقي لي فخذَ خروفٍ ممتاز لأن الشيخ معزوم عندي هذا اليوم.

الناس تستمع لما أقول، فالسوق صغيرة والصوت مسموع، ثم ذهبت إلى بائع الفواكه طالباً منه وبصوتٍ عالٍ أيضا أحسن أنواع الفواكه لأن الشيخ معزوم عندي، وذهبت لبائع الخضرة، وإلى الخباز وطلبت منهما نفس الشيء وبصوت عال، ثم إلى الحلواني.. وهكذا

كلما اشتريت شيئاً ذكرت بصوت عالٍ بأن الشيخ معزوم عندي. حتى سمع كل من في السوق بدعوتي لشيخهم

عرفت أن الناس من ورائي يتساءلون، إن كان الشيخ معزوماً حقاً عند هذا المعلم المسيحي؟

وإن صح هذا فهو يعني أنه ليس نجساً، لأن الشيخ سيتغذى في بيته...

وهكذا سرى الخبر بالمدينة، كالنار في الهشيم كما يقال، وانفكت عقدتي مع المقهى، فابتسمت يوما لصاحب المقهى سائلاً إياه:

هل أدفع لك سعر الكأس لأنك ستكسره ورائي؟ أجابني مبتسماً بخجل:

لا سيد موريس عرفت أننا كنا على خطأ ومرحباً بك في أي وقت..

سألتُ السيد موريس:

وهل كنت متزوجا حينما عملت بالعراق؟

قال وهو يحدق للبعيد وكأنه يرى الماضي أمامه لوحة بكل تفاصيلها:

لا، لكنني عشقتُ امرأة جميلة وحنونة، فيها عبق أنثوي لا ينسى.

ويسرح السيد موريس بذكرياته، كمن يخرج اللؤلؤ من عمق بحر بعيد ليضيف:

عشقت خجلها، خوفها من المجتمع، كانت مظلومة ومحرومة، أحبتني بصدق وكانت تحتفظ لي بأطيب أطباق القشطة واللبن الرائب.

غاب السيد موريس عن الواقع للحظات وهو يسترجع بذهنه ما كان ثم أكمل:

– أكثر ما أتذكره منها هو عطر البخور الطيب، البخور الذي كان ينتشر في ملابسها وشعرها، ومن خلالها أحببت كل العراق، رأيتها عشقاً بكراً نبيلاً، عرفتُ أن هؤلاء الذين يبيعون اللبن والقشطة هم بقايا السومريين، صناع الحضارة الأولى حافظوا على البقاء بذات أعمالهم ومهنهم منذ بدء الحضارة.

كانت كالنسمة العليلة، تدخل البيت بخفر وخفة، وكانت دائماً على عجل، آه، كم كانت حميمة، وجميلة، وحييّة، وكانت كريمة جداً، حتماً كان السومريون جميلين.

ثم يحدق في وجهي قائلاً:

كلكم جميلون يا ابنتي، وها أنت من الجنوب السومري الأصيل، بدء الخليقة والحضارة..

استمعت لموريس بإعجاب وامتنان، حفظت كل كلمة قالها، رأيته تاريخاً من التجارب حيث عاش ببلد غير بلده واغتنى بتجارب كثيرة، ثم عاد إلى وطنه ليكون عضواً في مجلس الشعب.

من مفكرتي (٢)

أفكر الآن وأنا أكتب هذه الذكريات، وما كنت أدري أنني سأعيش في عدة بلدان غير وطني، وأرى حيوات أناس كثر، وأتعرف إلى بشر من أجناس لم يرها موريس، أو لم يعايشها أو يحلم أن يراها،

لكن رغم كل هذا الكلام أليست علاقة العشق بتلك المرأة ساهمت بتفجير طاقات أخرى لديه.

طاقة الحب تتبعها دائما طاقات خلاقة أخرى، تمضي بك نحو الإصرار والاستمرار بطريق قد تعرف أن نتائجه مليئة بالمخاطر التي تسير بك إلى الموت بأسرع مما تتوقع أحياناً، ولكنها قد تبقى الحلم الأقرب إلى الحياة بكل طعمها وعمقها الخلاّب.

هذا اليوم وأنا في عام ٢٠١٤ تمنيت لو كنت قبلاً بعقلية الآن.

سجلت كل ما يدور بذهني، كل ما وجدته حقاً، وآمنت به حول العشق، وازداد يقيني به يوماً بعد آخر

العشق هو الطاقة الأقوى في الوجود، وهو أقوى الدوافع أيضاً، وهو طاقة خلاّقة، قادرة على صنع الحياة، فالجنس وحده خالق الإنسان لأن العقل البشري لم يستطع حتى الآن صنع إنسان متكامل من دون الحاجة للقدرة الجنسية.

منذ شبابي الأول اعتدتُ أن أطرح أفكاري على ندٍّ مفترضٍ لي خلقته في ذهني ووحدتي، فقال ندّي

كيف تقولين هذا؟

أجبته بسؤال جديد يدعم رأيي:

وهل استطاعت أنواع الطاقات الأخرى، أو أي عنصر من عناصر الطبيعة خلق حياة بشرية؟

هل استطاعت القوة الكهربائية، أو المغناطيسية، أو أية قوة من حديد، ونار، وغاز، وماء، وتراب، وأي مكون طبيعي أن يصنع روحاً بشرية؟

لا

إذاً، الجنس هو شكل من أشكال الطاقة الخارقة الخاصة بالسماء وعلينا تقديسه

ثم بقيت في تلك الدائرة حيرى، أقول لنفسي:

أليست المرأة التي تغري الرجل وتجذبه لفعل الجنس مفضلة لدى غالبية الرجال؟

ألم يسمونها امرأة الجنس المقدس في سومر حينما تهب نفسها للمعبد؟

ألم تستطع امرأة جميلة مثيرة للجنس أن تحوّل مليونيراً إلى شحاد؟

ألم تشتعل الحروب في ال تاريخ السحيق لبعض الشعوب من أجل امرأة أريدت للجنس فتحدث الغزوات والقتل؟

ألم يخلق الفراغ العاطفي والجنسي طغاة وقد أكد التاريخ دمويتهم بسبب عجزهم الجنسي أو هوسهم؟

ألم يرتبط جمال المرأة بالسحر؟

ألم يروَض الجنس انكيدو حتى تحوّل من الوحشية إلى المدنية؟

إذاً، الجنس طاقة قادرة على قلب الموازين..

أليس هذا هو فكر القرون الأولى حينما كان المجتمع أمومياً وكانت عشتار هي الربّة في الشرق، وديانا وأفروديت، وأسماء أخرى هن ربّات الغرب أيضاً؟

نعم قال ندّي، بلا تفاصيل ولا شرح ولم يناقشني، أو ربما كنت أنا دكتاتورية فأسكتُ ندّي غصباً عنه لأثبت صحة رأيي.

مسكين ندّي هذا الذي عاش مع عقلي الشرقي....

نسرين

بعد الغداء اتجهت سيارة موريس بي إلى دمّر والهامة قلت:
كم أحب فيروز وهي تغني "ودّيني لدمر والهامة" هذه هي دمّر وهذه الهامة، وكنا أنا وهو في مناطق ريف بحت، حيث تتنفس الأرض عبق الرشاد البري والطرخون، والزعتر، والهندباء البرية، ونعناع الماء الذي ينبت على ضفتي السواقي في البساتين، كما تنتشر على مسافة منا حقول الذرة الصفراء الذهبية مثل عقود العرائس، ريف جميل برائحة الأعشاب، وأشجار لا أعرف تصنيفها أنا التي لا تفقه في الزراعة شيئاً.

كانت الطبيعة البكر آسرة، بسيطة، وطيبة حين لم يكن بعد في تلك المناطق زحمة ولا بنايات عالية، بل كانت على شكل قرى خالية من ضجيج المدن عدا بعض المطاعم والبيوت المتناثرة بشكل عشوائي من دون تناسق.

بعد الغداء عدنا لنأخذ الحقائب التي نقلها السيد موريس إلى مكتبه المواجه للفندق تماماً.

شربت القهوة وعرفني إلى محامٍ يعمل معه وأخبرني أنه هو الذي سيأخذني إلى البيت الذي سأعيش فيه حتى يدبروا لي السفر إلى لبنان..

انتقلت مع السيد المحامي إلى بيت "أبو أنصار" وكان شاباً متزوجاً، له طفلتان جميلتان هما أنصار وبهار، كان هو وزوجته نسرين رائعين طيبة وتهذيباً، يحملان من المحبة ما لا يحصى، ومن الورد في قلبيهما ما لا نهاية له.

كان البيت قديماً ومتواضعاً جداً، يطلّ على ساقية آسنة تكتظ بالحشرات، أتذكر أول ما دخلت رأيت مدفأة المازوت المستعملة في سورية، والتي لم أر مثلها في حياتي قط، عجبت!

سألت ببراءة: هل هذا جهاز تقطير؟

أجابت الشابة باستغراب إنها مدفأة

خجلتُ من سؤالي..

خلال سويعات صرنا صديقتين أنا ونسرين، تبادلنا الهدايا وحكينا النكت التي جعلتنا نضحك وننسى ظروفنا، ووجودي العابر في بيتهم، إنها من عائلة فقيرة طيبة، و نسرين إنسانة جميلة بكل شيء

كان مكان نومي معها في الغرفة الوحيدة التي تمتلكها مع زوجها الذي صار يخرج بالليل لينام في مكان قريب خارج المنزل، حيث فرشت لي على الأرض فراشاً نظيفاً، قرب شباك خشبي قديم لا أنسى إطلالته وهو في الطابق الأول على تلك الساقية الآسنة.

بعد ليلة بدأت أشعر بحكة خفيفة، في الليالي الأخرى ازدادت، وإذا بي بعد ذلك أنتبه لحشرة تسير ببطء تشبه الذبابة الكبيرة وبحجمها، تنام في ثنايا صدري وتمتص من دمي، بدأت الحكة تصبح مرعبة وبدأ جلدي يقطر دماً. خفت وأنا أرى وجهي وجسدي الأحمر في المرآة، خفت من الموت قبل أن أصل إلى زوجي أو أرى ابني الذي في أحشائي.

أخذوني إلى الطبيب وهم قلقون علي جداً، حللت الدم قالوا ربما كان بها روماتزم بالدم، ارتعبت من كلمة روماتيزم، فبكيت، لكن الطبيب عرف أن ما بي كان تحسساً، وهو لا يعلم أنها بسبب تلك الحشرة التي خجلتُ أن أخبرهم عنها، كي لا أبدو جاحدة لأرواحهم الكريمة التي احتوتني بكل حنان وتفانٍ في الاهتمام والعطاء.

كان طعامهم ألذّ طعام بحميميته ونقاء من يقدمه، وكنت أشعر بلذّة مشاركتهم الخبز مع المربى وصحن اللبن الذي يوضع أمامي كل صباح مع كأس الشاي، نشترك جميعنا بذات الصحن الموضوع في الصينية، حتى شعرت أنني واحدة منهم وتذكرت أبو صفوان وزوجته روعة، في مدينة زاخو الحدودية في العراق، واهتمامهم بي، وكيف ندم [أبو صفوان] على عدم إخراجي من العراق مع زوجي برغم المنع الذي كان، وتذكرت استعداده بعد ذلك للسماح لي بالسفر إلى تركيا من دون وثيقة سفر لو كان عندي عنوان أذهب إليه.

عرفت حينها أن لي في هذا العالم حظاً كبيراً بقلوب تتضامن معي في أوقات الشدة.

كانت تسكن في الطابق السفلي لهذا البيت المتهالك امرأة كبيرة السن، عانس، تشترك مع العائلة ببعض مرافق المنزل، كانت هذه المرأة صعبة في تعاملها مع الناس جداً، عصبية، عللتُ ذلك بسبب عنوستها، العنوسة حرمان موجع في مجتمعنا، والحرمان أقصر الطرق إلى العصبية.

تتشاجر العجوز مع نسرين بسبب أو بغير سبب، وتنكد عليها، إضافة إلى حياة البؤس التي تعيشها، فأشعر بالتعاطف مع نسرين وأحبها أكثر.

بعد يومين خرجت إلى السوق وحدي لأشتري لهم بعض الحاجات للمنزل كهدايا، وعندما عدت إلى البيت قالت لي نسرين لا تذهبي وحدك مرة أخرى.

وجودي كعراقية في بيتهم أمر يثير الإحراج لهم، حيث لا جواز عندي يمنحني الحق بالبقاء والتحرك فترة طويلة في هذا البلد، السفرة كانت ذهاباً وإياباً بعد أسبوع، لكنني لم أعد إلى العراق بالهوية التي زورها لي الحزب بالعراق باسم حسناء أكرم صادق، و المسموح بها السفر بين البلدين لا غير، واستمر السماح للناس بالسفر بالهوية الشخصية بين البلدين لمدة أشهر فقط، هي فترة وجود العلاقة الطيبة بين الجارتين الشقيقتين سورية والعراق، بعدها أرسل النظام العراقي جلاوزته ليفجرّوا عبوات ناسفة في دمشق، وفي شارع مكتظ بالعابرين، ليحدث مجزرة مرعبة، راح ضحيتها الكثير من المدنيين الأبرياء أغلبهم من الأطفال إذ كان الانفجار قريباً من مدرسة أطفال.

أغلقت الحدود بعد ذلك الحدث الدموي لأكثر من عشرين عاماً، حيث كانت القطيعة بين البلدين إلى حد منع الذبابة من اختراق حدود الطرف الآخر حتى سقوط الصنم بالاحتلال الأمريكي الذي دمر العراق وأعاده إلى ما قبل مئة عام.

بعد مرور عشرة أيام عليَّ في بيت نسرين، حاولوا إخراجي إلى لبنان بالهوية المزورة وبالطريق الرسمي، لكن ضابط الحدود أنّبني، وأنذرني إن عدت

سيسجنني، فالهوية تصلح للسفر من وإلى العراق فقط وليس إلى لبنان، أعطيت حقائبي لزميل كان معي بذات السيارة قبل وصولنا إلى الحدود، وكان كاتباً يسارياً معروفاً وعدت لنسرين فوجدتها تبكي فراقي.

عدت لأجد أن الحزب قرر نقلي إلى بيت رفيق آخر وهو المحامي وزوجته "ملك" التي عرفتها معلمة وإنسانة رائعة.

كان بيتهم مبنيا على الطراز العربي القديم، له فناء جميل ومفتوح ذكرني ببيت أهلي، تعيش معهم أم المحامي وهي امرأة كبيرة السن، طيبة، تحمل بروحها كل ما هو جميل على وجه الأرض..

احتضنتني تلك العائلة النبيلة مدة عشرة أيام أخرى، ولن أنسى أن الزوجين أفرغا لي غرفة نومهما ومنحاني سريرهما النظيف المريح بغرفتهما الوحيدة المخصصة لهما وناما في الصالون مع طفلتيهما.

كان المرض قد اشتد علي فغدوت حمراء محببة، أهرش جسدي ليخرج منه دماً، علاجي كان كمية كبيرة من الأدوية بلغت ثلاث

عشرة حبة وكبسولة كل يوم، حرصت ملك زوجة المحامي على إعطائها لي بمواعيدها المحددة.

كانت ملك ترعاني كأم ليس لديها سواي، كم خجلت من نفسي وبكيت حباً حينما وجدتها تمسك كأس الماء بيد وحبات الدواء بيد أخرى وتنتظر استفاقتي من نومي، فدواء الحساسية غالبا ما يثير النعاس والنوم..

عجبت لتطابق اسم ملك مع روحها، فهي حقاً ملاك يسير على الأرض بأقدام مثلنا، إنها الملاك الذي عجبت كيف أن رعايته أثمرت عجباً وتشافيت بسرعة من المرض وبشكل مذهل لم يترك أي أثر في جسمي أو وجهي..

عدتِ عروساً كما أتيتِ

قالها لي وهو مندهش من التحول السريع في حالتي الرفيق العراقي المكلف بزيارتي من الحزب الشيوعي.

بعد أن تشافيت أخذوني سفرة إلى الريف عند معارفهم، تحديداً إلى بستان كبير، كان في بيت الفلاحين كل متطلبات الحياة الحضارية من كهرباء وثلاجة وتلفزيون.

صرت أقارن بين ريفنا العراقي البائس ونحن بلد نفطي، وبين ما رأيت من ريف نظيف، وصلته وسائل الحضارة الحديثة، فألعن المؤامرات، والخيانات، وقد ألعن النفط الذي جذب لنا كل هذا الذباب الأجنبي لنصبح على ما نحن عليه من تشتت، وهروب، وتشرد.

بيروت الحرب

كنتُ المرأة الوحيدة في باص فدائيي الجبهة الديمقراطية لتحرير فلسطين، الباص العابر للحدود السورية بطريق عسكري غير خاضع لتفتيش شرطة الحدود..

الرجل العراقي الكبير واليساري الذي التقاني في مكتب الجبهة الديمقراطية لتحرير فلسطين، والذي أوصلني له مضيفي السوري، أعطاني رسالة سرية كقمع السيكارة ذكرتني بالرسالة التي تركتها لزوجي حينما منعت من الخروج عند الحدود، والتي أعطيتها إياه من فوق حائط فصل بين المرافق الصحية الرجالية والنسائية..

ذهبنا..

وجدت شباباً عراقيين يساريين، بعضهم من معارفي في العراق، يريدون مثلي تغيير العالم بالتحدي والفقر..

كل الطريق كنا نغني الأغاني الوطنية، المتحدية بثقتنا بقضيتنا الإنسانية، وكأننا خارجون بسفرة طلابية..

ألحّ بعض الشباب في الباص على الغناء، رغم تعب السائق الواضح.

في الطريق نجد بين مسافة وأخرى يافعين يشيرون بأيديهم للسائق بالتوقف لكن السائق لا يتوقف بأمر من "أبو جبار" وهو مسؤول في الجبهة ومن الفلسطينيين العراقيين، حيث ولد وترعرع بالعراق ويتحدث بلهجتنا تماماً، عرفت فيما بعد أنه رسام أيضاً، إذ رافقنا كمسؤول عن الرحلة، قال أبو جبار معلقا على إيماءات اليافعين وبصوت مسموع:

ماذا تفعل بكم الجبهة أيها الصغار، نحن نناضل، لا نربي أطفالاً..

سألناه: من هؤلاء وماذا يريدون؟

أجاب:

هم غالبا من فلسطينيي المخيمات السورية والأردنية، أو من العرب الهاربين من أهاليهم، يلتجئون لبعض التنظيمات كمقاتلين، يريدون الذهاب إلى لبنان هروباً من مشاكل كثيرة منها الفقر، أو العنف الأسري، أو المشاكل الاجتماعية الأخرى، أو لطموح ما، وقد يكون أيضاً عنفوان مراهقة، أو إيمان بالقضية قبل الأوان، أو رغبة بالخروج على القانون وسلطة العائلة..

كنت أكتشف مآسي الناس، أشعر بالأسى لهؤلاء الصغار الذين يحملون في جعبتهم حكايا، وهموماً، وأسراراً شكلت عندي ألغازاً صعبة.

كل يوم أضيف مأساة مجموعة من البشر في ذهني وأسأل نفسي:

ترى هل يعرف السعداء كم من التعاسة في هذا الكون!

حين وصلنا إلى بيروت بشوارعها الحميمة، شعرتُ أنني أقترب من الموسيقى، والغناء، والاوبريتات، فرغم الحرب، ورغم الخنادق، والرشاشات، والمدافع، وأكياس الرمل في كل الشوارع، وبرغم عيون المقاتلين المتلصصة من بين أكياس الرمل، ورغم الأيادي الممسكة بالسلاح، والمتأهبة لإطلاق الموت وحشاً فتّاكاً، ستجد شجرة تضحك هنا، ولون بناية يبتسم هناك، برغم ثقوب الرصاص في الجدران، ترى محلاً أنيقاً بالإضاءة والملابس في زاوية ما، تسمع صوت الغناء الراقي، ترى عشقاً بين الشباب، وعناقاً في الأماكن العامة..

شعرت أنني أنتقل إلى عالم أحبه رغم الخطر.

تصدح فيروز في مطعم على الطريق، والشحرورة صباح، أو وديع الصافي، ونصري شمس الدين في أمكنة أخرى.

كم غنيت وأنا سائرة إلى العمل رغم خوفي الكبير من السلاح الذي لم أفكر يوماً أن أتعلم استعماله، أو أفكه، أو ألمسه حتى الآن..

يشغلني المعذبون فأُرجيء وعودي

ربما كان علينا أن نشعر بالسعادة لأننا نعيش بزمن مضادات الالتهاب [الأنتبيوتك]، وعلينا أن نتذكر ألكسندر فيلمنج مكتشف البنسلين في كل التهاب نصاب به على الأقل، فألم الضرس الذي عذبني طوال الليل وأنا في سفرة لدولة خليجية، لم يكن ليشفى مطلقاً لولا المضاد الحيوي، ولولا الاتصال الفوري بالطبيب، ولولا السيارة التي أوصلتني بسرعة، ولولا الأجهزة الحديثة لما حلت مشكلتي بظرف ساعة..

الألم الذي أرهقني ليلة قلبتها وجعاً في فراشي قد زال كمن يستلّ سفوداً حاراً من جمجمتي..

هذا ما فكرت به حين تحررت من عذابي بالألم، فهل علينا أن نقارن مع العصر القديم لنشعر بالسعادة؟

كان الناس يموتون أحياناً لمجرد التهاب باللوزتين، وارتفاع درجة حرارة أجسامهم، أو التهاب في أضراسهم.

لعله أسلوب للبحث عن سعادة مفقودة، في زمن ضاعت فيه قيم كثيرة، وما عاد للحياة معنى حين أصبحت السعادة امتلاك أدوات مادية للهاث وراء حضارة تسير بنا إلى هاوية من الخواء الروحي.

لعلي كنت كمن يتمسك بقشة قبل أن أغيب في لجج الطوفان..

من مفكرتي

قرأت لي صديقتي يوماً وهي تتسلى بقراءة كتاب أبراج صيني شيئاً عن برجي الذي يصف شخصيتي قائلة:

رومانسية، مرحة، صادقة، مضحية، كريمة ولكن بك عيباً وهو أنك تنتقلين من حديث إلى آخر من دون رابط بين الاثنين.

يومها ضحكنا كثيراً، ومنذ ذلك اليوم وأنا أنتبه لنفسي ولصدق ما قالت، وإن كان مصادفة، وها أنا حتى في كتابة الرواية سأنقلكم معي من زمن إلى آخر، ومن بلد إلى آخر بشكل عشوائي.

سامحوني هكذا أنا في الواقع ولا أقدر أن أغير نفسي وطبيعتي، وكما وعدتكم في هروب الموناليزا سأكمل سرد رحلتي الممنوعة، ولكن لا بد من الحديث عن الحاضر، لتكن ذكرياتي عن الماضي وأخباري عن الحاضر أمامكم، أما المستقبل، فهو كلمة خرافية، صرت لا أحبها ولا أحترمها، ولا تقولوا لي أن حياة الإنسان هي وحدة أزمان ثلاثة، هي الماضي والحاضر والمستقبل، ولا يمكن فصل أحدهما عن الآخر.

سأقول لكم أنني كرهت كلمة المستقبل، فهي قد أخذت الآن منحى واحداً غالباً عند الناس، هو المال والمصلحة لا غير، فهم يقولون للابن:

أدرس لتبني مستقبلك، ويعنون الوظيفة، والبيت، والمصالح الشخصية.

لم يفكر أحد أن يغيّر شيئاً في هذا العالم مما يحصله من علم أو موهبة أو مكانة، الكل يفكر بأن المستقبل له هو فقط، دون سواه، حتى الأدباء، والفنانون، صاروا يحلمون بالمال، والشهرة، والملذات، والأضواء، وقنوات الإعلام، فتجد أغلبهم يتجنبون طرح موضوعات هامة تغير من مجتمعاتهم وينأون بأنفسهم عنها إلى كتابة تتقبلها أغلب الحكومات خاصة الغنية التي ستمنحهم الجوائز، أي المال والشهرة، ويتجنبون إغضاب جهات ظالمة، والقليل منهم من فكر بفضح ظالم، أو تحريك قضية مظلوم.

مستقبلي لا يعنيني بقدر ما يعنيني قول كلمة حق، ونقل ذكريات من ماضٍ أو واقع أليم يصرخ بالعقول من أجل التغيير.

غريبات

كانت عيادة طبيب الأسنان في الطابق السادس، حين خروجي من عيادة الطبيب فاجأني المصعد بالعطل، آثار التخدير تشعرني أن حجراً ثقيلاً فوق خدي الأيسر، حيث مكان العصب المخلوع، انتظرت المصعد لدقائق، ولكن من دون جدوى، هممت بالنزول، وإذا بشابة جميلة، خرجت من طبيب الأسنان، والظاهر أنها لم تكن تريد منه سوى سؤال فقط، حيث فهمت أنهما جاران وأنهما يتعاملان على أساس علاقة الجوار.

عرفتني بنفسها مادة لي يدها مصافحة:

أمل

ثم أضافت:

عرفتك لأنني شاهدت لك لقاء بالتلفزيون، وأنا سعيدة للتعرف بأديبة، هذه أول مرة أتعرف على أديبة شخصياً.

ضغطت الشابة على جرس قرب المصعد قائلة هذا الجرس للحارس الذي سيقوم باللازم، سيكون المصعد بعد دقائق على ما يرام.

بادرتني أمل:

تفضلي عندنا أرجوك حتى ينتهي إصلاح المصعد، فأنت لا تزالين موجوعة.

ترددتُ في الاستجابة، لكنها أضافت:

نحن بنات فقط ولا رجل في شقتنا، بل ممنوع دخول الرجال علينا.

وأضافت:

اطمئني فمالكة الشقة تمنع علينا استضافة أي رجل فيها، تجنباً للمشاكل..

دخلت شقتها بعد أن أحرجني إلحاحها، وخوفي من كلمة متكبرة تعرضني للإحراج، كما أنني وجدتها فرصة للتعرف إلى مشاكل الناس وحيواتهم.

مجموعة شابات على أسرتهن بعد، في غرف مكتظة بالأسرة، فتحن عيونهن.

قدمتني لهن أمل بإطراء كبير، وقدمتهن لي:

هيام. داليا. فريدة، أماني، لينا، بيداء. وأنا أمل وتبتسم.

بدأت تشرح لي من دون مقدمات:

شقتنا مفروشة استأجرناها بالسرير وثمن السرير كل أسبوع مائة درهم وها نحن كما ترين من بلدان عديدة، سورية، لبنان، العراق، مصر المغرب، روسيا، إيران ووو ثم تقول ضاحكة نحن أمم متحدة..

البنات يفتحن عيونهن وقد بدا عليهن الانزعاج.

حدقتُ بملابسهن الشفافة، وآثار المكياج على وجوههن الشابة، ملامحهن ما زالت بريئة لم تأخذ طابعاً يوحي بغير السوية.

أحضرت أمل صينية الشاي والبسكويت، نزلن من أسرتهن التي بدت لي كأسرة السجن، قسم منها بطابقين للمزيد من استغلال المكان من صاحب الشقة وتضييق الخناق على أرواحهن.

بدأت أحاديثهن تأخذ شكل الشكوى.

قلن لي:

لا ترتبكي، خذي راحتك، هنا صاحب الشقة يمنع علينا دخول أي رجل خوفاً من المشاكل وللحفاظ على "السمعة" ثم يتغامزن ويتضاحكن ساخرات من كلمة "سمعة"..

قلتُ أخبرتني أمل بذلك قبل دخولي

سألتهن عن أعمالهن فكانت كل واحدة لها عمل مختلف عن الأخرى..

أمل قالت إنها تعمل نادلة في مطعم

هيام سكرتيرة عند طبيب عيون لأنها درست في بلدها كمساعدة طبيب،

فريدة قالت إنها مهندسة،

بيداء قالت إنها تعمل منظمة أفراح واحتفالات

لينا الروسية كانت لهجتها العربية ضعيفة، لكنني فهمت من زميلاتها أنها تعمل في مطعم أيضاً.

داليا التي رغم جمال وجهها وخصرها، أثار انتباهي ساقها، ساقها المأكول بحبوب متقيحة بصديد، ولون بثور إلى حدّ مرعب ومخيف، وكأنه الجدري وهو يأكل قدمها صعوداً إلى فخذها، ولا أعلم كيف يترك هذا من دون تغطية أو طريقة تمنع رؤية الناس لمنظره البشع.

لم تتحدث عن عملها شيئاً واكتفت بابتسامة ثم غيرت الموضوع فشككت بعملها ولكني تساءلت في نفسي، كيف أن رجلاً يمكن أن ينام معها وهي بهذه الساق المقرفة؟، لكنني عدت وغيرت رأيي بعملها وأبقيت باباً من الفضول مفتوحاً لي..

ما أبشع الحرمان وما أسخف الغريزة حين تكون منحطة ورخيصة إن كان عمل داليا مثلما شككت..

أوف ربما أنا أشك أكثر مما يجب.

كانت قصصهن عالماً أجهله تماماً، ولن أفك رموزه من قبل، لن أنسى ما قلنه وما عرفته عنهن أبداً، حتى صرت في حرب مع ذاكرتي التي تأتي بهن كلما فكرت بعالم النساء والظلم الذي عصف به!

من مفكرتي

هل كانت سيدوري في ملحمة جلجامش على حق؟

أم انطلقت من واقعها البدائي في عقول ما قبل التاريخ، حيث كان طموح الإنسان طبيعيا لم يتعقد بعد، أو غريزياً فقط؟

هي لم تنطق بكلمة تعلّم، ابحث، أو طوّر

قالت: عشْ، واسعد نفسك ومن معك، ربما هي اختصرت كلمة السعادة ببساطتها، إذ لا يحتاج الإنسان في عالم آمن، بلا أشرار أكثر من هذا لنسميه سعيداً.

آه من الشر، إنه يدفع العالم إلى التعقيد والبحث عن الخلاص منه، إذ يسلط كل أسلحته الفتاكة على الإنسان، فيدفعه لاكتشاف ما يواجه به الشر دفعاً ويخرب الطبيعة.

لكن الزلازل، والبراكين، والعواصف، والثلوج، والرعود ووو الكثير من أخطار الطبيعة ذاتها، تدفع الإنسان لمواجهتها فتصبح الحياة حرباً، لا تترك الإنسان يعيش كما أرادت فتاة الحان بنصيحتها.

تقول فتاة الحان سيدوري لجلجامش:

"إلى أين تمضي يا جلجامش

الحياة التي تبحث عنها لن تجدها

فالآلهة لما خلقت البشر

جعلت الموت لهم نصيباً

وحبست بين أيديها الحياة...

أما أنت يا جلجامش،

فأملأ بطنك

افرح ليلك ونهارك

اجعل كل يوم عيداً

دلل صغيرك الذي يمسك يدك

واسعد زوجك بين أحضانك
هذا نصيب البشر في هذه الحياة.

أمل

ما زال كل شيء محفوراً في ذاكرتها، من رائحة العرق في إبطيه النتنتين، إلى كفيه المتخشنتين من أثر حمل مواد البناء كالإسمنت والطابوق وسواهما.

تتذكر أمل الآن كل التفاصيل التي مرت بها منذ أن تفتحت للحياة حتى بلغت الرابعة عشرة عاماً من عمرها.

لم تكن تعرف عن الحياة شيئاً، سوى أن لها بيتاً تعرف عنوانه في زقاق من أزقة مدينة بغداد، في البيت أمها التي لابد وأن تحبها، حتى وإن رأت منها ما يجعلها تشك بذلك الحب، شك جاء من أسباب عديدة، منها أن استشهاد أبيها في جبهة الحرب، وهي لما تزل في أحشاء الأم، جعل النحس يلازم اسم الطفلة، وتعرف أمل، من كثرة العنف الذي تمارسه أمها ضدها، بأن الفكرة مترسخة تماماً في رأس الأم، ولا تستطيع أن تمحوها مهما فعلت خيراً.

زاد الطين بلة الحرب أتت في أيام ولادتها على أخيها الوحيد "بهيج" الذي تخرج في كلية الزراعة، والذي عقدت العائلة عليه الآمال في مستقبلها المظلم.

تستحضر أمل الآن ذلك الهلع الذي تحدثه أمها حينما تثور عليها، بسبب أو من دونه، ففي كل مرة تكون بها عصبية، تصمم على قتلها بأي شيء تمسكه يدها، من قنينة ماء زجاجية، إلى إبريق شاي يغلي، إلى أية سكين أو أداة جارحة من أدوات المطبخ..

تذكرت ذلك كله، ممزوجاً بشعورها الذي لا تستطيع تحديد وصفه حتى الآن، حينما كان اللجوء إلى غرفة خالها "ماهر الأعرج" لا مفر منه.

كانت إعاقة خالها ماهر الواضحة وهو يسحب ساقه أثناء المشي سبباً بإعفائه من العسكرية والحرب التي أكلت الأخضر واليابس.

تذكرت أمل حين تندس بفراش خالها ماهر الدافئ المنبعثة منه رائحة نوم رجولي، لشاب لم يغتسل كما يجب..

تذكرت لون اللحاف الأزرق المعتم، السرير الحديدي، الحشية القاسية المسحوقة التي تصلّب الظهر..

تسترجع الآن صوت نعاله البلاستيكي حينما يترك الفراش لينتعله، ماسكاً بمنشفته، جاراً ساقيه جرّاً متجهاً إلى المغسلة فجراً، حيث يبتدئ عمله المضني.

تذكرت أول مرة، حين امتدت يده إلى صدرها الناعم، فانفجرت أمامها أحاسيس الرفض غير المعلن، والتي تحملتها بصمت، لتعتاد بعد ذلك على كفه الخشنة العابثة بنعومة نهدها الحالم والغافي بين قطن الثياب، ورائحة اليفاعة المنعشة..

استحضرت رائحة الرطوبة التي تملأ غرفته القابعة في زاوية من ذلك البيت العاري من الكسوة منذ عشرات السنين، كرجل عجوز فقدَ شعره وعضلاته واهترأت فيه الروح، بيت مهلهل إلا من رياح الشتاء التي تتخلل جدرانه المشققة وثقوبه التي تفرخ كل يوم..

تذكرتْ الحشرات، السحالي أو أبو بريص كما نسميه بالعراق، بعيونه المحدقة ببلادة وضديّه دائمة، كان يشكل عوائل متكاثرة في ذلك البيت المنسي، في زقاق لم يعرف رائحة الإسفلت منذ زمن عبد الكريم قاسم، أي منذ عشرات السنين..

حينما هربت أمل في إحدى ليالي البرد القارص، كان خالها ماهر قد تأخر عن المجيء للمنزل بعد دوي انفجار هزّ المحلة.

أمها في قلق كبير، فرجل المنزل، والمعيل الوحيد المتبقي لها، يتأخر لأول مرة.

من عادته أن يأتي كل يوم منذ وقت المغرب، كان يأتي متعباً، يملأ الرمل والتراب ثيابه ويديه وصدره، يطلب الراحة والطعام المقسوم والمقدور عليه، في بلد حربها تمتد إلى ما شاء الجلّاد وكبار مجرمي الكون من الأثرياء، فقرها يزداد، إلى حدّ الانتحار لكثير من العوائل.

إنهم ينتحرون يأساً وإباءً.

فأمّ أمل تعرف تماماً، أن حسن الحلاق، قد جمع أفراد عائلته وأغلق عليهم الباب بالاسمنت لتموت العائلة جميعها بكرامة وأنفة، موتٌ يليق بشعبٍ عريق، ذي تاريخ يمتد لآلاف السنين من الحضارة.

إنهم ينتحرون بلا ضجة، بعد أن فقد الأب أية قدرة على جلب ما يسد به رمق عائلته، وبعد أن تعرض المحل للقصف العشوائي بالحرب غير المنتهية، وفقد الحلاق يده اليمنى مع إعاقة في ساقيه.

وهي تعرف أيضا أن بنت ناصر النداف، قتلها رجلٌ من عشيرتها حين جاعت ولجأت إلى فعل لا يرضاه الله والناس.

تتمتم الأم بصوت خفيض:

أعوذ بالله من شر الشيطان الرجيم، أين صار أخي هذه الساعة؟

إلى أين أذهب وأسأل منْ؟ ودويّ الانفجار لا يزال مجلجلاً في الأذن، ولملمة الأشلاء لم تسكت عويل الإسعاف بعد؟

كيف سأعيش مع هذه النحس أمل التي أبقاها لي القدر لأتعذب؟

القلق على أخيها ماهر دفع أم أمل للجنون في لحظات انتظار طالت.

أسئلة كثيرة راودتها..

ماذا سيحصل لهم لو أن هذا الأخ فقد هو الآخر بأية نازلة من النوازل التي تلعب بهم منذ عشرات السنين؟

ماذا ستفعل ومن أين تأتي بالخبز والستر؟

سترك يا رب قالت، ثم التفتت لابنتها صارخة في وجهها غير مخفية كرهاً وجزعاً من الفتاة، مؤكدة ومعللة ما قالته:

الستر من أين يأتينا ونحن نعيش مع وجه النحس، التي قبل أن تفقس في بطني، راح بنحسها أبوها، ثم أخوها وهي ابنة يومين، والحرب تواصل حصد الآخرين!

لو كانت ولداً لما تعذبت بها ولما خفت عليها، ولكن البنت كما يقولون ضلع أعوج، هي ضلع قاصر ولا يُدعى لها سوى بالستر، أما الولد فهو لا غبار عليه مهما فعل ومهما كان، فالولد محمود ومرغوب، ولو أن الله أحبني لجعلها ولداً، حقا أن المكرمات في موت البنات.

استغفر الله وأحمده على كل المصائب، تضيف:

الحمد لله الذي لا يحمد على مكروه سواه، لكن هذه البنت مصيبة كبرى يا ربي، ثم ترفع عينيها إلى السماء داعية الله:

ربي لا تؤاخذني على كلامي فأنت أدرى بكل شيء، يا رب خذها، وخذ الحرب!

تقترب من باب المنزل، تفتح الباب ناظرة إلى الخارج، ترى بعض الجيران يدخلون بيوتهم ويغلقون الأبواب، وماهر لم يأت بعد.

تمد رأسها عبر الباب، تسأل عنه بعض أبناء الجيران العائدين، ولا جواب يزيل خوفها.

ترتدي عباءتها وتخرج سائلة من في الشارع من أبناء المنطقة:

هل عرفتم القتلى والجرحى في الإنفجار؟ ويأتيها الجواب:

كثيرون... الإنفجار قوي، فلم نستطع أن نتعرف عليهم، إذ غدوا أشلاء متطايرة.

حدث الإنفجار والسوق في الظهيرة مكتظة، إنه وقت الذروة.

إجابات الناس تزيدها رعباً، لم ينطق أحد بكلمة تهدئ من روعها.

نظرت إلى جانبي الشارع، لا فائدة، الأقدام بدأت تتوقف عن السير.

القلق يكبر، يفتح لها حفرة فارغة في الرأس لا تستطيع أن تملأها بأية أجوبة، عدا رؤية جثة أخيها مدماة، ستبقى هذه الصورة في مخيلتها حتى عودته من الخارج.

تصبح الأم عصبية أكثر من أي وقت تصرخ منادية ابنتها:

أمل

كانت أمل تسرح بأفكارها التي أشعلت صراعاً بين رغبتها في أن يأتي خالها، لأنه الملجأ الوحيد لها ساعة غضب أمها غير المعروف توقيته، وبين رغبتها في غيابه الأبدي، لتتحرر من تلك اللعبة المقرفة التي اعتاد خالها أن يلعبها معها بصمت، وبرجفات الجسد، ولهاث الفحولة التي صارت تشعر بالقرف منها.

أمل تشعر بالإهانة من فعلٍ أكرهت عليه بدافع حاجة اللجوء إلى الأمان من غضب والدتها، لكن الهروب صعب ولا قدرة لها عليه.

فكرة الهروب تشغل أمل صباح مساء، ولا حيلة لديها حتى الآن، ليس هناك أية وسيلة أو نافذة توصلها لحياة أكثر أماناً وبعداً عن عبودية تلك الممارسة التي تضغط على روحها، تكسرها وتشوه فرحتها بالنضوج..

هدأت الضجة التي تبعت الإنفجار، مضى من الوقت الكثير من الساعات.

هاهم الناس يعودون إلى منازلهم، لكن ماهر لم يعد.

قلق الأم يتحول إلى جنون لا يطاق، تفجّره في وجه أمل قائلة:

أنت تجلسين بلا فعل شيء، وخالك لا نعلم بأية كارثة هو؟ ترد أمل بحيرة وجزع:

ماذا تريدينني أن أفعله وسأفعله. تنفجر الأم صارخة:

ماذا ستفعلين أيتها الوقحة، وتردين عليّ بصلف وكأنه لم يكن معيلنا الوحيد، ناكرة الجميل، يا وجه النحس، لولاه لما أكلنا ولا شربنا، تجلسين مرتاحة من دون أن تشعري بالنار التي تأكلني، وبأعلى ما تستطيع تتوعد الفتاة:

سأدفنك حية لو حصل له مكروه.أقسمُ أنني لن أتركك تشمين الهواء لو حرم هو منه. سأتخلص منك ومن عارك الذي أراه يترصدنا من الآن.

قومي من وجهي الآن يا.. كلبة.

ثم ترمي ما بيدها من كأس زجاجي استطاع أن يلحق بأمل الهاربة ليصيب ساقها، فتصاب برضٍّ، يترك بقعة زرقاء بحجم كعب الكأس على ربلة ساقها اليسرى.

قالت لي، سألني:

ما هذه البقعة على ساقك أيتها الجميلة الصغيرة؟

إنها أثر وقعة من على الدرج.

انتبهي لنفسك مرة أخرى كي لا تشوهي هذا الجمال الفاتن

قالها الرجل الستيني، وهو يداعب ساقي أمل الناعمة، على ذلك الفراش الوثير، في الفندق الراقي، المبني بجهود أجنبية، في بلد خليجي مستأنفاً:

إنك جميلة يا بنت، ولك جسد رائع ولذيذ، صدق الشاعر حين تغزل بأطراف العراقية فقال:

"عراقية الأطراف رومية الكفل"

لك ساقان منحوتتان كأعمدة مرمر، ولك لون مشرق كتفاحة وردية ناضجة.

من مفكرتي (I)

أندهشُ لأحداث الزمن الحالي

اليوم 11-9-2014..

أقرأ في روايات أغلبها صارت تستند إلى الخرافة كتسلية أو استشراف للجديد، فأتساءل وأنا في هلع الحاضر:

هل أن الخرافة وجدت بسبب الخوف؟

وهل اشتهارها بالرواية يعني أن البشرية تمر بالخوف الذي لا ينتهي، حتى إنهم استعذبوا الخرافة وأصبحت في جيناتهم كمتعة، وتسلية لتحمل ما يرونه من خوف في الواقع؟

أجلس على جهاز الكومبيوتر، أفتح التلفزيون كي لا يفوتني شيء من أخبار السبي الداعشي للمسيحيات والأيزيديات، وقتل كل المكونات العراقية والسورية التي لا تعجب داعش.

هاهي الأخبار المرعبة تفزعنا، كيف أصبحنا لا نتقبل الآخر بشكل شرس؟

الصور المنقولة من الفيسبوك من سورية والعراق تذهل العقل.

مقاتل مجرم من جماعة داعش، أو ما يسمى الدولة الإسلامية، يلتقط صوراً مع خمس رؤوس مقطوعة، هو حصاده اليوم لأناس أبرياء يختلفون معه في الدين أو الطائفة.

الرعب يسري بين البلدان العربية والتعصب يكبر.

يطرح الواقع دماراً لم نسمع به من قبل، إلا في عصور غزو، حطم حضارة سومر، وآشور، والفينيقيين، والفراعنة وحضارات أخرى سادت ثم بادت.

تنتصب أمام العين محاكم التفتيش، وإبادة الهنود الحمر.

الإبادة، كلمة مرعبة، تجعل كل شيء نسيّاً منسيّاً.

استولى عليَّ الهلع الذي أراه في التلفزيون، في الفيسبوك، وأينما أفتح موقعاً الكترونياً، حتى أصبحت أخشى على رقبتي وأتحسسها بين الحين والآخر متسائلة عن كيفية ذبح إنسان!

أية نفسية هذه أو غسيل دماغ أوصلت هؤلاء إلى هذا المستوى من الوحشية؟.

الأبرياء المدنيون، أكبر ضحايا ما يسمى بثورات الربيع العربي والتنظيمات الإسلامية المتعصبة في هذه البلدان..

الأحداث الجديدة تفاجئنا كل يوم بانهيار جديد يربكنا، سقوط مدن بيد الإرهابيين، مجازر وتخريب متتال، الحيرة تفرز أسئلة لا نجد لها أجوبة مقنعة.

هل الناس قديماً أكثر صدقاً وطبعاً راقياً من إنسان ما بعد الأديان السماوية الثلاثة؟

هل ما قبل الدين هو الذي خرب نظرة الإنسان لجسده وألغاه تماماً وجعله لا قيمة له إلا بعد الموت كروح تبعث لنهاية غير مقنعة، بها جنة مملة، بوصفٍ ساذج مليئة بالجنس، ونار كاريكاتيرية كأفلام الرعب؟..

أين أَجِد الحقيقة في خضم كل هذه التساؤلات والصراع النفسي؟

لكن البشر في سنوات عديدة كانوا يتعايشون ويحبون بعضهم بعضاً..

أتذكر طفولتي قبل العقل والنضج وجنونهما.

تذكرت نفسي منذ لعبت في شوارع تلك المدينة الجنوبية، كان حب الجمال يؤرقني.

كنت أريد أن أكون أجمل امرأة بالعالم، أقارن بين البشر، أحاول تقليد أجمل النساء.

أحببت الممثلات الجميلات وهن يمثلن أدوار الملكات في التلفزيون، ولأن اسمي اسم ملكة كنت أحاول أن أتشبه بحركاتهن الراقية الملوكية، أنصت للجميلات في واقعي أكثر من سواهن، أحفظ حركاتهن ولبسهن، وعطورهن، وتسريحات شعورهن وأنا مأخوذة ومسحورة بالجمال حتى أدخلته في يوميات يوتوبياي، ولن أنسى ابنة عمي الجميلة جداً، حينما كانت تحدثنا عن أهم أدوات الجمال، تقول النظافة أول شيء والرائحة العطرة.

تلتفت برقبتها الجميلة المستندة إلى شموخها البادي، وهي الكبيرة المتزوجة بيننا قائلة:

يجب أن لا تنام المرأة بملابس لبستها أثناء الطبخ، فرائحة الطبخ تبقى بشعرك وملابسك، وأن تكوني امرأة جميلة ومعشوقة، أن تنتبهي لمشيتك، جلستك، رقبتك، وتشممي عطرك دائماً وفي كل زاوية من جسدك وفمك.

كنا ننصت لجمالها وحركاتها، يرسخ كل ما تقوله في أذهاننا، وكأن جمالها يكفي كوسيلة إيضاح لما تقول، فنصدقها دونما أية أسئلة..

حدثتنا قريبتي الجميلة هذه، عن رشاقة المرأة، وعدم الإكثار من الطعام الخالي من الفيتامينات والفوائد، عن كيفية جعل الجسد ناعماً كجسد الأطفال، عن استعمال الحجر الذي يجعل الساق براقة كالزجاج..

ورغم كل هذا الحب للجمال والدعة، أراني انخرطت بتنظيم سري معارض، وبسبب حبي للفقراء والعدالة، تأثرت بأفكار ممنوعة، لأتحمل معها كل التبعات منذ سن المراهقة....

للذاكرة لذتها التي لا تعوض
ولها وجعها غير المنسي

وكم كان في بيروت من وجع استقر في ذاكرتي أبدا..

يوم ٢٥-٧-١٩٧٩ كان أول يوم عمل لي في التوجيه المعنوي، مسؤولة عن شؤون الجرحى في الجبهة الديمقراطية لتحرير فلسطين.

لم أزل طالبة، ولَم أكمل تعليمي الثانوي بعد، قابلني مسؤول التوجيه المعنوي" رمزي" وكان مثقفاً راقياً، ملتزماً، وصاحب مبادئ وشهامة، تناقشنا، تحدثنا عن الثقافة، وعلم النفس، والنضال ضد الظلم، أعجب بثقافتي، قرأت له بعض أشعاري، استحسن قدراتي أكثر، فأيقن بأني قادرة على القيام بمهمة التوجيه المعنوي لأصبح مسؤولة عن شؤون المقاتلين، الجرحى، وزيارة عوائل الشهداء، وحتى السجناء.

أصدر بذات اليوم قراراً باعتباري موظفة عندهم.

هكذا كانت القرارات سريعة لا تنتظر، فالموت كان يومياً، والقصف الإسرائيلي والحرب الأهلية لا تمهل أحداً..

بدأ عملي منذ ذلك اليوم.

تأتيني من الطبابة التابعة للجبهة في كل صباح قائمة بأسماء الجرحى والمرضى الذين يتعالجون في مستشفيات بيروت، لأزورهم، وأرفع من معنوياتهم، وأسأل عن أوضاعهم وأحوال جروحهم، وأتعرف على مشاكلهم، وكل ما يحيط بإقامتهم في أماكن العلاج، ثم أكتب في نهاية اليوم تقريراً عن حالاتهم ونفسياتهم، و أحدد ما يحتاجونه.

إنها مسؤوليتي وأسلوب نضالي من أجل الإنسان،

كنت حاملا بطفلي، لكنني ما كنت لأحسب حساباً لمستقبل أو تغيير سياسي يقوض ذاك العالم الذي أحببته، ورأيته عالماً متمرداً على الظلم، نافراً، ثورياً، إنسانياً، مميزاً، بانياً للمبادئ، وراكضاً وراء الحق مهما كانت النهاية.

سعدت بعملي، فقد أحببته، إذ به عطاء إنساني يعوضني عن إحساسي بالغربة عن وطني وأهلي.

كان الجميع معي طيباً إلى أبعد حد، مما خفف عني الإحساس بالغربة، وصرت أرى لبنان وطني.

كنت فرحة بوجودي في " بيروت الصمود" كما كنا نسميها، وكم كنت فخورة بما أقوم به حيث أنا على محك النضال الحقيقي، قريبة من قضية حق إنساني، فطالما رأينا أمهاتنا يبكين على الفدائيين الفلسطينيين حينما يسمعن ويرين أخبارهم في التلفزيون، وها أنا معهم في موقع خطر واحد..

في القائمة أسماء جرحى دائمين لصعوبة جراحاتهم، جاءتني أسماؤهم كالتالي:

شادية.. شظايا في القدمين تسببت في قطعهما.

زياد صالحات.. شظايا في الركبتين أقعدته

يعقوب حزينة.. شظايا في أحد القدمين قطعت الكاحل

أكرم ناجي.. انفجار قنبلة، فقدان يد وعين

عبد العزيز.. شظايا في البطن

رأفت.. مرض بالدم

ليث.. قطع ساق

وأسماء أخرى قد تطول القائمة وقد تقصر.

جرحى من فدائيين فلسطينيين غالباً، وبعضهم عرب من سورية، لبنان، الأردن، العراق، مصر، وأحدهم كان تونسيا هو عبد العزيز الكثير من الأسماء، والكثير من الشظايا، والإصابات، والجروح، وقطع الأعضاء.

أسماء يشفى أصحابها فتخلو القائمة بعد أيام منها، البعض يستشهد فلا يذكر اسمه في القائمة بعد ذلك أبداً..

كان الجرحى الذين لم يستكملوا علاجهم، يقيمون في دار النقاهة التابعة للجبهة الديمقراطية لتحرير فلسطين، يرعاهم أطباء وممرضات فلسطينيون وعرب، بعض الممرضات أوروبيات، متطوعات في الثورة الفلسطينية، اخترن لأنفسهن أسماءً حركية

عربية غالباً، فالإنكليزية ليلى، والإيطالية نور، والفرنسية ميسر، واحتفظت تانيا الروسية باسمها..

بعض الجرحى مسالمون جداً، ورائعون، مؤمنون بالقضية حدّ إثارة الإعجاب بهم، يمتنون لكل كلمة أو فعل يقدمه لهم الزائر أو الممرضات والأطباء، يبحثون عن كتب تثقفهم وتسليهم حتى شفاء جروحهم الخطيرة، لكن البعض الآخر قد ملّ جروحه، وكره نفسه، فانعكس ذلك على تعامله مع الناس.

هناك من يشعر أنه قد انتهى وما وجوده هنا في دار النقاهة غير استسلام للنهاية وعليه إيجاد وسيلة لاستعجال النهاية بسرعة، مهما كانت تلك الوسائل.

هناك من لا يستطيع السير، يلقي همومه وأسباب تأخر شفائه على الطاقم الطبي، يترصده لالتقاط هفوة ما..

قال لي زياد الصالحات، وكان أقدم مقيم في النقاهة وهو مصاب بركبتيه ولا يستطيع السير إلا على العكازات، بأن الممرضات لا يهمهن الجرحى بل لهن علاقات بالأطباء وهن يقضين كل الليل معهم.

عجبت من كلامه مع أنني حسبته مثقفاً، إذ وجدته يوماً يقرأ بكتاب النزعات المادية في الإسلام للدكتور حسين مروة..

عجبت مما قال لأنني وجدت أن مجرد تطوعهن ومجيئهن لبلد مليء بالحروب والمشاكل السياسية، هو تضحية كبيرة، هذا إضافة

إلى أنهن آتيات من بلدان متطورة، وحياة أكثر نظافة واهتماماً بالإنسان.

الممرضات الأجنبيات جئن إلى لبنان متطوعات في الثورة الفلسطينية، في زمن لا تزال به صورة جيفارا وأفعاله طرية في ذاكرة الشباب، حتى ليحاول الكثير من الشباب أن يتبعوا خطاه حسب ما توفر لهم من طرق التضحيات، في زمن لا يزال الفكر الإشتراكي ومبادئ التضامن بين الشعوب، يفتح طرقاً للخير هنا وهناك في العالم الذي يغلق الآن أبواب الخير، لتصبح دروباً للقتلة، وقطاعي الرؤوس، ومخربي الحضارات، الزاحفين لعفونة المخابئ الدينية الغارقة بالمخدرات، والشذوذ، والفساد..

من مفكرتي (٢)

هل كان صاموئيل هنتكتن على حق في أن الحضارات تتصادم؟ وهل كلمة حضارة تتناسب مع كلمة تصادم؟

أم أنه أخطأ في اختيار العنوان لأن مفهوم الحضارة مفهوم إنساني قيمي أولاً، فلا تبنى المدنية أو الحضارة إلا بالقيم، والصدام شكل من أشكال الهمجية والغريزية البدائية..

ما هي الفكرة الأصح يا ترى ومن المتحكم بهذه الصراعات؟

هل هي شعوبنا العربية التي تتمسك بفكر القرون الأولى رافضة معنى الحضارة الحديثة، غارقة بالغيب تراوح بمكانها، يساعدها في

غيّها هذا قادة يستغلون جهل القطيع ليبقى تابعاً لهم أبداً، لاهثاً وراء فتات خطاباتهم الكاذبة والنرجسية؟

أم هو صراع أكبر، فيه رؤوس أموال، وأثرياء كبار يتحكمون بكل ما نأكل ونشرب، وأسواق، ومافيات سلاح، ومصانع موت تخطط مصائر الشعوب في العالم الجديد الباحث عن سر وجودنا واستغلالنا، صاعداً الفضاء بجنون بحثاً عن حياة جديدة دونما اهتمام لإبقاء الحياة على هذا الكوكب الذي يخربونه؟

حتما هي كل هذه، وحتما لرأس الأفعى الدور الرئيس بكل ما يصيبنا، ونحن الضحايا الذين نعلك كرب قهرنا ونحتار.

أؤمن اليوم أن احتلال فلسطين مفتاح خراب الدول العربية جميعها، وأننا أُكلنا يوم أُكلت فلسطين.

كمال

في بيروت سكنّا بداية في بناية تقع في منطقة جسر الكولا مقابل حاجز لأحد فصائل المقاومة، لم يمض على وصولي إلى بيروت سوى أيّام قليلة، حيث حدث ما ذقت به علقم الحرب والاقتتال بين البشر، الحرب القاتلة للأبرياء والمدمرة للمدن والحضارات، يومها كنت أجلس في البيت أهيئ الطعام بعد عودتي من العمل، وكان زوجي يعمل في برج البراجنة، وإذا بي أسمع صوت طائرة الفانتوم، لم أكن أعرف سابقاً هذا الصوت، ولَم أر الطائرات سوى في التلفزيون، لكنني الآن في الطابق الأول، كانت واجهة البناية المطلة على الشارع كلها زجاجية، تملكني الرعب وكنت حاملاً، فتحت الباب وخرجت هابطة السلم أبحث عن قبو، حيث كنت أرى بالأفلام أن الناس تهرع للأقبية أثناء الغارات، وجدت باب القبو مغلقاً، وإذا بشاب من نفس البناية يصيح بي

مدام أين تقفين، أنت تعرضين نفسك للخطر، ألا ترين الاشتباك؟ اطلعي للبناية تلك، إنها أكثر أماناً

فسألته: أليس هذا الصوت، صوت طيران إسرائيلي؟ قال نعم لكنهم أيضاً يشتبكون والرصاص قد يصلك، صعدت وكانت أخته وأمه في الباب سألنني هل أنت وحدك؟

قلت نعم

فهتفن بي:

تعالي ادخلي معنا حتى تنتهي المشكلة

كانت عائلة طيبة بملابس مدنية أنيقة، أدخلوني بيتهم النظيف والمرتب، من دون معرفتي، ولمجرد رؤيتهم لي وحيدة، غريبة وخائفة.

دخلت شقتهم حيث أجلسوني معهم بغرفة داخلية من دون واجهة زجاج وهم يدعون الله السلامة للجميع، أخذوا يسألونني من أين أنت، وأين زوجك، وماذا تعملان، وأنا أجيب بعض الأجوبة صدقاً، وبعضها تغطية لوضعنا، ومن الخيال كما كان الحزب يوصينا.

يشتد صوت الرصاص كلما خفّ صوت الطيران الإسرائيلي، عجبا! كنت حسبت في البداية أن الصوت الذي أسمعه مع صوت القانتوم هو مضادات الطيران، والآن أعرف أن فصيلين فلسطينيين اشتبكا على الحاجز، لأن من يقف على الحاجز قد منع– تعسفاً– سيارة الفصيل الآخر من العبور أثناء تحليق الطيران الإسرائيلي.

نسمع صوت صراخ آتٍ من الشقة المقابلة وفي الطابق الأول، فتح جارنا الباب خرجنا لنلقي نظرة، وإذا بِنَا نرى شاباً لبنانياً ممدداً في الممر والدماء تسيل من رقبته، شهقت وكاد يغمى عليَّ من المشهد،

كان بعمر ١٧ عاماً كما قال أقرباؤه، كانوا يندبونه باسم كمال، قالوا هو من صيدا، وجاء إلى بيروت بسبب القصف الإسرائيلي المكثف هناك على الجنوب، فلحق به الموت حتى بيت أقربائه.

أصرخ اتصلوا بالإسعاف، يرد عليَّ جارنا إنه يتصل الآن لكن الإسعاف يرد بعدم قدرته على الوصول بسبب الاشتباك حيث قطعت تلك الفصائل الطريق، بقي كمال أكثر من ثلاث ساعات نازفاً دمه حتى فارق الحياة قبل وصول الإسعاف بعد فك الاشتباك.

رحل الشاب كمال الذي هرب من الموت ليلقى موتاً آخر، وبرصاصة اشتباك طائشة، رحل بلحظة مجنونة قتلت كل أحلامه وأحلام أهله به.

رحل ولا عزاء للأبرياء لأن إسرائيل مطلقة اليد في كل أنحاء العالم وأقرب مكان لها هو لبنان.

زوجي تأخر ولَم يعد، فما كان من قلقي سوى استبدال صورة الضحية كمال بصورته، قلت حتماً هناك ضحايا كثر من تراشق الرصاص الذي استمر ما يقارب ثلاث ساعات.

كالمجنونة لا أدري إلى أين أمضي، لم يكن في شقتنا هاتف، ولَم يكن بعام ١٩٧٩ ما ندعوه اليوم بالهاتف النقال، بدأ القلق يتوحش ويفقدني القدرة على التفكير، أين أذهب في ظل هذا الفزع، والوحدة والغربة؟

كمال، الشاب الجنوبي، كان أول ضحية أراها في بيروت.

عند وقت الغروب جاء زوجي، عندها شعرت بالانهيار فبكيت كثيراً وأنا افتح له باب الشقة منهارة، كانت الطرقات المؤدية لشقتنا قد أغلقت، وبقي هو منتظراً، غير مسموح له حتى السير على القدمين للوصول إلى البيت.

هذا كان أول استقبال حربي تستقبلني به بيروت ولَم يمض على وصولي إليها غير بضعة أيام.

شادية

شابة فلسطينية قطعت الشظايا نصف قدميها في القصف الإسرائيلي على المخيم الذي تسكنه، مما أعاق إمكانية حركتها واهتمامها بطفلها الرضيع.

كان وضعها النفسي متردياً جداً فهي لا تستطيع الاهتمام بطفلها، تنتظر المساعدة من أم محمد في كثير من شؤون الطفل وشؤونها شخصياً.

أم محمد المرأة المصرية الطيبة، الخدوم، تعمل طباخة في دار النقاهة، لكن أخلاقها العظيمة جعلها تعمل كل ما يساعد الآخرين، أم محمد تضم بروحها حناناً ودفئاً غطى الجميع، فهي تساعد شادية بواجبات الطفل وكأنه حفيدها.

يزور شادية يومياً زوجها، صاحب الساق الخشبية، يلاعب الطفل ويجلب له الحاجات والألعاب.

شادية وزوجها، لحق بهما الصراع حتى القدمين، وكأن تحرير فلسطين لا بد وأن يمر عبر أقدام هذه العائلة التي حدستُ وأنا أنظر

لطفلهم في خطواته الأولى حظه المشابه لحظ والديه، بعبور شظايا المستعمر عبر عظام القدمين..

شعبٌ يسير، يناضل، ويتقدم وهو فاقد لنسبةٍ كبيرة من أطرافه؟

لن أنسى ذلك اليوم ما حييت، كنت أهمّ بالدخول إلى مبنى النقاهة. سمعت شادية صارخة باكية، وحين دخلت المركز وجدت زوجها يمسك بطفلهما بفرح، لقد اكتشفوا أنه بدأ يقف اليوم على قدميه وينقل خطواته إلى الأمام.

شادية تريد أن تمسك بيد طفلها وتسيّره فرحة به ككل الأمهات، بيدَ أنها لا تستطيع، فالوقوف بنصف قدمين جريحتين مستحيل...

كانت تصرخ وتبكي بحرقة والدموع تغرق وجهها:

أريد أن أمشي، أريد أن أمشي، يا ناس أريد أن أمشي

لم يكن الصوت يصدر عن شادية، إنما رعدة احتجاج على كل شيء، على الطبيعة، والصراع، والناس، والسياسة، والأرض، والبشر، والسماء والوجود كله..

ظلت جملة "أريد أن أمشي " تحفر في أعماقي أنفاقاً، لأشق بها عصيّ الخيال، حين أرددها أخشى من تحجر قدميّ، أحركهما بلا وعي مني أحياناً.

تحدثت شادية ضد الجميع بأسلوب لم يتوقعه منها أحد أبداً، أخرجت أسرار الليل ضد الممرضات جميعهن.

منذ أول كلامها أو حنقها عرفت أن كل ما قالته شادية الثائرة مجرد تهيؤات لامرأة تريد السير كما الآخرين ولا تستطيع.

شادية، الجريحة، الآتية من مجتمع المخيم الفقير، المحافظ، المتمرد، المثقف البسيط في آن، صعب عليها أن تتفهم أطباء وممرضات بعضهن أجنبيات يجلسن مع زملائهن لشرب الشاي والطعام، ويخففن عن أنفسهن ومرضاهن ببعض النكت والأحاديث الشيقة، أو يجلسن ليلاً في الشرفة مع الأطباء حين يكون الطقس جميلاً في الصيف، يتحدثون بلغة لا تعرفها شادية.

من أين لشادية الموجوعة روحاً وجسداً أن تتفهم النضال العابر للقارات؟

يومها اكتشفت بتلك الممرضات المتطوعات قيمة نبيلة من إنسانية جيفارا، هزتني دموع في عيونهن، وانحناءة أسف على نفسية شادية المتدهورة وظنونها التي خربها المرض، وكمن يكتشف ميتاً، كانت دموعهن تقول لنا آسفين إذ لم نستطع المساهمة في تفادي هذا الخراب الذي ترونه أمامكم.

كبرن في نظري إذ صمتن كالعظماء، ثم طلبن المغفرة منها، وأخذن يهدئن ثورتها بالصمت والدموع..

لكن شادية صرخت بوجوههن بعصبية ودموعها تحرق بشرتها:

أريد أن أمشي.

يا عاااااالم، يا ناس لا أريد منكم شيئاً

أريد أن أمشي فقط

ثم فكّت بجنون الشاش الذي يحيط بساقيها أعلى الجبس المبني على قدميها صارخة بصوت وحشي:

لا أريد علاجاتكم، وانفجرت رامية علب الدواء في وجوه الممرضات، حشرجة صوتها تمتص كل حزن الكون لتجمعه في روحها، صوتها المخنوق الخارج نشيجاً من حنجرة مختبئة ببلعومها كصوت طالع من عمق بئر عميق، صوت يثير الرعب، ويذكرني بمقتولين خنقاً في سجون النظام الدموي بين قطعتي حديد بآلة أسموها منكَنة"mangana، تضغط القطعتان شيئاً فشيئاً على جسد الضحية المعارض، حتى تخرج منه الروح، الروح التي صارت مجرد حشرجات، صاعدة نحو سقف أصم في عتمة السراديب المخيفة.

تلك الحشرجات في صوت شادية أحيت أمامي كل الشهداء الذين قتلوا تحت التعذيب في سجون النظام العراقي الذي طاردنا وحرمنا الوطن والأهل وكسر كل طموحاتنا وأحلامنا.

وقفتُ ذاهلة، خفتُ من أية إضافة مني، وأنا الجديدة في العمل منذ أيام، ومهمتي هو توجيه الجرحى معنوياً ومساعدتهم نفسياً.

شعرت بصعوبة مهمتي وعدم قدرتي فعل شيء أمام هذا الانهيار المروع لامرأة مليئة باليأس والوجع.....

من مفكرتي (I)

شادية ظلت في ذهني أبداً، نويت أن أكتب عنها وعن كل من لا يستطيع المشي، فمنها عرفت أن هؤلاء يتعذبون عذاباً كبيراً لأنهم يرون كل شيء ويعجزون عن القيام بأي شيء من دون تأهيل واهتمام.

هل الكسيح يتعذب بقدر عذاب الأعمى؟

من هو الذي يتعذب أكثر يا ترى؟

كلٌ له نوع عذاب ولا مقارنة تصلح لمعرفة من هو الأكثر عذاباً حين يفقدُ عضواً من أعضاء الجسم لتبتدئ دورة حياته بالإرتباك.

تمنيت يومها أن أنضم لجمعية ترعى الكسيحين.

شادية أعطتني درساً بالأمومة المعاقة، التي ترى صغيرها ولا تستطيع الإمساك به ومرافقة خطواته الأولى، أرتني نوع عذابٍ ما كنت أعرفه..

هكذا كانت بيروت، كل يوم تكشف لي نوعاً جديداً من القهر البشري.

صرت عندما أسير أشعر أنني سعيدة بقدميّ وساقيّ، لشدة إدراكي بأهمية قدميَّ، أرى نفسي خفيفة جداً، أطير إذ أمتلك ساقين قادرتين على المشي.

انغرست شادية في ذهني، صرت أرصد المشاة في الشارع، أعدّ عدد المعاقين الذين ألتقيهم يومياً، أنتبه لسيقانهم أكثر من ذي قبل، أحدق بأرجلهم الصناعية الخرساء، أو أحذيتهم الغريبة التي تترك في وجوههم تجاعيدَ وجعٍ خاصٍ بأمثالهم من دون سواهم.

أسير في طريقي وأتعجب كيف تتحمل الأقدام ثقل الجسد عليها وتسير كل العمر كيلومترات لا تعد ولا تحصى، ولاسيما الأقدام الفلسطينية التي لا هدف لها ولا أمنية سوى المشي في درب العودة..

إذاً، فاستهدافها أمر عظيم..

استهدافها!

لا

إنهم لا يستهدفون الأقدام وحدها، بل يستهدفون وجودنا، وحياتنا، لا أقدامنا

والطيران لا يقصف الأقدام في بيروت فقط، هو يقصف كل شيء حيث تطير به الرؤوس قبل الأقدام.

من مفكرتي (٢)

قالت لي صديقة من لندن قبل سنتين إنهم غيروا ركبة أمها إلى ركبة حديدية، قبل عام من وفاتها.

دخلت الصورة في مخيلتي فرأيت أمها تخرج من قبرها بمفاصل حديدية، تتجه صوبي لتأخذ ركبتيّ، هربت والحلم لاحقني بتلك الصورة المخيفة.

كيف يكون الناس بلا أقدام؟

صرت بحاجة للذهاب إلى المصحات كي أرى أصحاب الاحتياجات الخاصة ممن لديهم مشاكل في أقدامهم من فقدٍ، وقطعٍ، وعوق ولادي.

حتى هنا في بلد آمن كهولندا رأيت أن الشاعر هاري يسير بقدم خشبية بعد تعرضه لحادث سير، إذاً الأمر ليس في لبنان فحسب، بل في كل العالم.

هل صناعة الأقدام عند الله غالية ولا تكفي البشر، يوزعها بالتقنين ولا يسامح بفقدها ولا يعوض؟

آه، لو تنمو مثل الشعر، والأظافر.

لو تطلع لمن فقد قدمه قدم جديدة، أو ساق مثل سيقان الورد

لو نستطيع السير من دونها مثلاً، أو يتم تعويضنا عنها بالطيران،

فيطلع لمن فقد السير جناحان يطير بهما ويحل مشكلته...

الرقصُ حرية الجسد

انطلقْ أيها العبد

ليسَ لك في الأغلالِ حياة..

أمل

أمل الشابة التي التقيتها عند طبيب الأسنان في بلد خليجي، هاهو أسمها وملامحها تظهر على شاشة التلفزيون، إنها في مقابلة لقد عرفتها برغم محاولة المخرج إخفاء وجه الفتاة بالإضاءة، في برنامج جديد بعد سقوط الدكتاتور، يعالج المشاكل الاجتماعية و ظاهرة الدعارة المنتشرة في البلد العريق الذي يفتخر أهله بالحضارة الأولى.

ها هي الآن، تجلس أمام ناشطة في حقوق المرأة، معهم رجل قانون، ومقدم البرنامج.

يتناوب الحاضرون على توجيه الأسئلة لها واستنطاقها، للوصول إلى أسباب ومعطيات انحرافها المبكر كما يعتقدون، محدقين بوجهها باستنكار، وكأنها وباء خطير، أو كأنها الوحيدة الداعرة في هذا العالم، أو كأنها جالبة الفاقة، والاحتلالات، والدكتاتوريات المروعة.

يحاول مقدم البرنامج أن يبتدع كلاماً يتناسب والكارثة الجالسة أمامه، محاولاً إظهار لباقته أمام الجمهور بأكثر ما تكون، وبما يتناسب مع حجم الدمار المطل على الشاشة، فيأتي بكلمات إنشائية مكتظة، يطرحها مرة كنتيجة لما مر به البلد من صراعات وحروب

سياسية، ومرة أخرى تكون تربية الأهل وراء ذلك، ومرة الفقر والتشرد، ومرة أخرى تكون الفتاة هي المتسببة والمسؤولة عما هي عليه.

يزاحم الكلمات معبراً عن نذير شؤم آتيا فوق ما ابتلي به الناس في البلد المقهور، مؤكداً على أنها حالة غير طبيعية، مرفوضة، لا بد من معالجتها بأسرع الطرق، ولا بد من مساهمة الجميع باجتثاثها.

لم يفكر بالخسائر الشخصية الفادحة التي تتعرض لها الفتاة، بل هو يؤكد على خطورتها على المجتمع دونما يؤلمه وضعها كضحية من الضحايا الساقطة كل يوم، وعلى كبر مساحة ذلك البلد المنكوب، يسألها:

هل أنت راضية عن نفسك في هذا الوضع، وهذه المهنة التي لا يرضاها الله ولا المجتمع؟.

تجيبه بسؤال لا يخلو من التعجب والسخرية:

وهل أستطيع أن أعيش بطريقة أخرى من دون تأهيل ولا شهادة ولا رأسمال؟.

ثم قبل أن تبلع أمل ريقها، تصفعها الناشطة النسوية بسؤال آخر، وهي ناظرة إليها بعينين مفتوحتين على مصراعيهما، وكأنها تريد اكتشاف شئ ما غير مرئي، خبأته أمل عن الجميع تحت جلدها، وبعمق عينيها، وطيات شعرها المنسدل، الجميل والواضح رغم كل التظليل الذي وضعه المخرج على وجهها.

تحاول الناشطة العانس، حليقة الشعر والمليء وجهها بالتجاعيد أن تبحلق بعينيها بكل ما تستطيع قائلة:

هل تتوقفين عن هذه الأعمال إن استطعنا إيجاد عمل شريف لك يجنبك متاعب وإهانة هذه المهنة.

فترد عليها أمل بقوة المتحدي:

إن كان العمل الجديد يستطيع أن يوفر لي دخلاً كدخلي الآن، فلِمَ لا؟. وتضيف:

أنا الآن أملك بيتاً ومجوهرات، ورصيداً في صندوق التوفير ببلد عربي ثري، وتضيف قائلة:

أود طمأنتكم بأنني أمارس أعمالي في غير بلدي، لأن الإمكانية هناك أفضل، والأمان أحسن، والزبائن من جنسيات بلدان غنية، وأنتم أدرى بكل شيء.

يتبادل الطاقم الذي يقابل أمل بالنظرات الحائرة بعد أن قالت لهم أنتم أدرى بكل شيء.

يتساءل مقدم البرنامج مع نفسه، ترى لماذا أفزعتهم الجملة؟

هل يا ترى تذكّروا بأن الانتخابات قريبة، خاصة وإن المنظمة التي ترأسها تلك الناشطة أرادت أن تعمل شيئاً للمرأة المخدوعة في مجتمع كثرت فيه الدعارة وأصبحت ظاهرة لا يمكن السكوت عنها؟

ظاهرة، صارت لا تختلف عن الموت الجماعي في المتفجرات، وكالأرامل الواقفات طابوراً طوال نهارات حارة أو باردة أمام دوائر

المساعدات ومديريات التقاعد ومؤسسات الدولة، يستجدين بعض سنين عمر أجبرن على عيشه كيفما اتفق.

يلتفت مقدم البرنامج إلى السياسي الحقوقي قائلاً:

ماذا يقول القانون في حالة الأعمال المخلة بالشرف؟

وتتفجر الذكرى في رأس أمل شظايا تحمل ذات الاسم، تتكرر الكلمة الشرف.. الشرف.. الشرف..

تعيدها الشظايا إلى أمها التي كانت تردد دائما معنى وضعته للشرف، وهو يعني ما بين فخذي المرأة صعوداً إلى رقبتها.

منذ الطفولة حفظت ذلك التعريف، مفسرة له خطورة الموقع في المنطقة المحرمة على الرؤيا واللمس، فالشرف أن لا تُرى وتُمس، والفضيحة الكبرى لو أن هذه المنطقة بانت وعُرف طعمها، وبانت فعالها، وانتشرت رائحتها.

وتسرح أمل سائلة نفسها وكأنها تجد السؤال أول مرة:

ألم يسمع خالها ماهر بذلك؟

فلماذا كان يلعب ويعبث بتلك المنطقة المحرمة، حينما كانت تلتجئ إليه هاربة من ضربات أمها العنيفة، حيث تندس في ذلك الفراش الذي رسخ في ذهنها إلى الأبد وحجب عنها نكهة الحياة.

لا تعرف الآن كيف تستمتع مع أحد بممارسة الجنس، حيث تمثل الدور عليهم جميعاً، تتأوه لأنهم يحبون ذلك ولكن من دون أن تتفتح رغبتها، وكأن سيقانها بلا مسامات وبلا روح، رغم العطش، فهي لا تعرف أن تسترخي، إلا عندما تستحضر رائحة إبطيه، فراشه

الصلب، ويديه الخشنتين اللتين صارتا عنوان الرجولة في حواسها الأنثوية.

من مفكرتي

تحاول بعض القنوات الفضائية تسليط الضوء على ظاهرة الدعارة التي انتعشت بشكل مخيف في بلداننا.

كانت أمل بطلته ذلك اليوم، وهم لا يعرفون عن خلفية انحرافها شيئاً.

فهل استفاد المجتمع من هذا البرنامج الفاشل؟ أم استفادت أمل منه؟

الذكرى وفاء

يوم كانت بيروت تكرر كلمة الصمود وتواجه رأس الأفعى بعنفوان وشجاعة، كان الصمود في العراق هو أن لا تنحني للعدو ولا تتبرأ من المعارضة، بل أن تقف بوجهه حاملاً عوزك، ومبادئك، وتضاريس هموم الآخرين.

تصمد بيروت تحت القصف والمدافع، وتتطاير إصص الورود من على شرفاتها الجميلة، آخذة معها عطر عاشقة أو ألعاب طفل، وكنا في العراق، نصمد داخل المعتقلات المرعبة بانتظار موتنا، أو نختفي داخل المخابئ في محلات بغداد الفقيرة، أو نموت تحت التعذيب وكأننا ما ولدنا، نطمح أن نلتحق بالنضال في بيروت، هروباً من موت يطاردنا بالعراق، فنلتحق بجبهة حرب لنواجه عدواً أسّس لكل قهرنا ولإنهاء وجودنا من على خارطة الأرض.

وجودنا في بغداد بشكل سري، كان نوعاً من الصمود، حيث العين لا تواجه المخرز، لكن المخرز يلاحقنا ليفقأ القلوب لا العيون فقط.

كنا بين الجد والسخرية نقول كلمة الصمود أحياناً..

وأضيف ضاحكة ناظمة بيت شعر ساخر

بين "الزرورِ" قاعدُ.. إنّي شيوعي صامدُ..*

* الزرور تعني الأفخاذ باللهجة العراقية الدارجة

قلتها ساخرة حينما كنا أنا وزوجي ورفيق ثالث جالسين قرب سيقان حديدية ساخنة بما يشبه المكوى، أفخاذها للأسفل وأقدامها للأعلى، يقوم زوجي وبعض زملائه من العمال إدخال الجوراب النسائية الشفافة في هذا القالب الحار لتأخذ شكل الساق قبل وضعها في علبة للبيع في شركة بغداد للجواريب حيث عملنا بها متخفيين عن عيون عسس النظام، نلوذ بأمكنة لا يعرفنا بها أحد، حيث تركت مدرستي خوفاً على حياتنا كمعارضين للنظام.

كنا نتندر على أنفسنا ونضحك، عارفين أن نضالنا قد دخل نفق الهروب المظلم لا غير، وما صمودنا سوى صمود عاجزين، ليس أمامنا أي بديل عن الموت سوى الهرب.

يحوم الموت حولنا، حينما نسمع أن أبا فلان مات تحت التعذيب، وفلاناً قد انتهى وتبرأ من الحزب.

أتذكر أبا غازي، جاء باكيا في أحد الأيام قائلاً لزوجي بانكسار:

رفيق أنا طاح حظي وتبرأت من الحزب

وبقي منهاراً ينتحب لدقائق، مرض من شدة الحزن حتى مات خجلاً من رفاقه وكيف تبرأ من حزب كان له بمثابة الأب والعشيرة كما يقول.

فالالتزام بالحزب خلقاً قبل أن يكون سياسة، هكذا كانت أخلاق الشيوعي.

كان الإيمان بالمبادئ الشيوعية كالتعصب الديني اليوم، فالمهم هو أن الرفيق يموت شيوعياً، كمن يموت وهو مؤمن بالله وقد أدى الشهادة، لا تختلف كثيراً، هذا قمة ما يتمناه أحدنا في زمن الخوف، واليأس القاتل.

الاستشهاد تحت التعذيب أمر مرعب، وهو استهتار كبير بالنفس البشرية التي تلاقى أنواع العذاب والإهانة الروحية والجسدية، وهذا يقاس بقدرة وعظمة عطاء المستشهد، وكما يتمنى المؤمن بالله الموت لرؤية وجه ربه وجنته الموعودة برضا وقناعة، يتحمل الشيوعي بفخر كل عذاب لا يطاق ولا ينبس ببنت شفة، يتحمل كل السكائر التي تُطفأ في جسده، كل الركلات والشتائم، يتحمل إدخال قنينة زجاجية في دبره، وقد تُكسر فيها، يتحمل قلع الأظافر، التعليق بالمروحة الكهربائية، الجلد والتشويه، الكي بالنار، ويتحمل كل أنواع التعذيب المرعب، والأساليب المبتكرة كل يوم، حتى تغادر روحه جسده بصمود ليكون شهيداً في حزب الشهداء، وتنشر صورته في طريق الشعب أو يتداولها الرفاق سراً ليتعرف عليها أعضاء الحزب، يفتخرون به ويسمون أسماءهم الحزبية باسمه، وقد يسمون باسمه أبناءهم إن كانت لديهم الشجاعة أكثر.

يا لتلك الذكرى التي لا تغادرني وذلك البيت السري في حي الرسالة.

حي الرسالة، منطقة جديدة آنذاك، لم تبلط شوارعها بعد، يتندر عليها أحد الرفاق من المختبئين معنا حينما تصبح تلك الشوارع بالمطر طيناً يتزحلق بها العابرون قائلاً:

حي الرسالة الخالدة

ميها ومطارها واردة.

استأجرنا بها من خلال أقرباء رفيق شيوعي بيتا كبيراً بثلاث غرف للنوم و حديقتين، واحدة أمامية وأخرى خلفية، ومطبخ كبير له باب على الحديقة وحمام بخاري مثل بقية حمامات أهل العراق، حيث الأرضية تكون سقفاً إسمنتياً مدعماً بالحديد، تحته غرفة نار توقد قبل استعمال الحمام حتى يغلي الماء في الخزان الذي تخرج منه حنفية تعطي الحمام ماء ساخناً وبخاراً لدرجة لا تكاد ترى نفسك معه، النار المشتعلة تحت الأرضية الإسمنتية، تجعل أرض الحمام حارقة بسبب هذه النار التي تُغذى كي لا تخمد حتى انتهاء جميع العائلة من الاستحمام، يضطر المستحم انتعال نعل بلاستيكي أو خشبي يقيه لسعات الحرارة.

يذكرني حمامنا العراقي ذاك بوصف له من قبل امرأة أوروبية قرأته في مجلة الموعد، التي كانت تشتريها أختي في سبعينيات القرن المنصرم.

كتبت هذه المرأة رسالة إلى أختها بعد أن تزوجت من عراقي وجاءت معه لتسكن العراق، كتبت لتطمئِن أختها على حالها في البلد الشرقي، وقد تُرجمت رسالتها ونشرت لطرافتها.

تخبر المرأة الأوروبية أختها بما معناه أن زوجها وأهله طيبون جداً، وكرماء جداً، وهي مرتاحة كثيراً معهم، وبلدهم جميل وملئ بالنخيل

والبساتين والحدائق، لولا أن هناك ما ينغص عليها سعادتها، ثم ترجو أختها أن تكون شكواها سراً تخبئه عن أمهما كي لا تحزن.

تكشف كاتبة الرسالة السر الذي ينغص حياتها ويجعلها أحياناً تفكر بترك زوجها والعودة إلى أوروبا، والسر هو حمّامهم العراقي المرعب.

قالت بأنهم يجعلونه حاراً جداً، ببخار يكاد يخنقني، ولكنهم يستحمون به فرحين، يهنئون من ينتهي من الاستحمام، كمن جاء من حرب، أو خرج من الموت، ويقربونه من المدفأة، ويسقونه شراباً دافئاً. أما أنا أجدني في كل مرة في الشتاء حين أغتسل أموت، وأعود مرة أخرى إلى الحياة، وأخشى أنني في مرة ما سأموت فيه فعلاً، ولن أخرج سليمة، لقد شكل الحمام هذا عندي همّاً ورعباً نكدا علي حياتي، وأخشى أن أرفضه كي لا يشعروا أنني مختلفة عنهم ومتكبرة عليهم فتخرب علاقتي معهم، وهم يعاملونني جيداً، ويحتفون بي كثيراً، ويرعونني أكثر من أهل، فلابد لي من ممارسة الحياة معهم كما تعودوها، وانتظروها مني.

وتؤكد مرة أخرى برسالتها على أختها، أن تكتم السر بينهما ولا تخبر أمها كي لا تقلق..

من مفكرتي

أتذكر رسالة المرأة الأوروبية تلك كلما نوقد النار تحت خزان الحمام.

أجد أحياناً أنها محقة، فلماذا كل هذه النار وكل هذا البخار؟

هل يحتاج الجسد البشري لكل هذا العنف وكل هذا الاختناق بالبخار لينظف؟

حملت كل هذه الذكريات معي إلى بيروت، ورحت أختزن كل ما أراه في ذهني، وأقارن بين البلدين..

في الومض حياة

صيف 2014، في قرية شنكال الأيزيدية ومناطق مسيحية مجاورة لها.

أنا سندس إحدى السبايا الهاربات بمعجزة..

كان الليل ينتصف حين سمعت أقداماً ثقيلة قرب شباك غرفتي، أنام وحيدة بعد وفاة أبي الذي كان ينام على هذا السرير الذي صار لي من بعده، برغم خوف أمي علي لكننا لم نتوقع أن يصل الأمر بغزوٍ همجي دخل مدينتنا لا ندري كيف يكون كاسراً للأبواب وسالباً منا كل شيء ليعيد التاريخ مئات السنين إلى الوراء ويطبق فينا نظام السبي، فنباع كقطع الأثاث بأيد سماسرة قتلة، طلعوا لنا في القرن الواحد والعشرين من كل فج عميق.

توقعت أن حارساً ما يقترب ليتبول قرب نافذتي، انتقلت الحركة بسرعة قبل أن أصدر عليها حكمي وأعرف ما هي.

فجأة، يُفتح بابنا بحركة قوية وبضربة واحدة لا أعرف كيف نفذوها، دخل على غرفتي رجل قذر، أشعث الشعر بوجه وقح وبابتسامة ساخرة خبيثة

شدني من شعري بحركة واحدة.

فجأة وبلمح البصر وجدت نفسي في سيارة مع أخريات كالخراف والسياط تنهال علينا

أين أمي وماذا حصل؟

من هذا وأين يذهب بي؟

الذهول أوقف العقل واللسان، وأفرغ منا كل محاولة لإيجاد الإنسان المحتج بداخلنا.

لا يمكن الحديث بأي شيء والسلاح محيط بنا ومصوّب نحونا، نظراتهم الشهوانية تلاحقنا بعري كريه.

سارت بنا السيارة وهم يغنون بفرح المنتصر:

يا عاصب الرأس وينك... إلخ

نظرت إلى وجوه الشابات معي، إيزيديات ومسيحيات، أعرف بعضهن، تغطي وجوههن سحابة أسئلة لا يعرفن صياغتها، ما زالت رائحة النوم بشعورهن وبملابسهن المربكة، الخوف لوّن شفاههن بزرقة وجفاف، حتى ليفهم كل من يراهن إنهن ذاهبات للذبح بلا قطرة ماء بعد أن رأين ما كان.

أشرت بعيني لإحداهن مستفسرة بصمتي عن فهمها لما يحصل، لكنني لم أتلق جوابا بإشارة ولا بإحساس، ولعلها لم تفهم من إشارتي شيئاً.

سارت بنا السيارة التي حشرونا بها كالأغنام، الهواء يصفق بكل شيء، الهواء يجرح أرواحنا، إذ يذكرنا بأنه هو غير العاقل قادر على التحرك في كل الجهات لكن الحركة ممنوعة علينا نحن اللواتي نحمل صفة البشر العاقل.

المرارة في الأفواه والوجوه تتحد مع الخوف، لتولد لوناً غير معروف لوجوهنا جميعا.

عيون المتوحشين تصعد وتهبط فوق أجسادنا حتى نشعر أن لعابهم يسيل ويلتصق بقرف على رقابنا وشفاهنا.

المحنة الكبيرة هو أننا لا نعرف ماذا سيفعلون بنا..

في الطريق كان وجه أمي الذي لم أودعه ينادي عليَّ.

صوت أمي يوخز قلبي فتعصرني العبرة، أكتمها غصباً....

حين وصلت السيارة بنا إلى مكان عرفنا أنها مدرسة سيطر عليها الإرهابيون، وضعونا في صف من الصفوف.

كنا أكثر من ثلاثين فتاة، أغلقوا علينا الغرفة بالمفتاح، لم يكن في الغرفة أو الصف أي شيء سوى الأرض، الحر الخانق تكاتف معهم ليعصر ما تبقى من قدرتنا على تنفس الأوكسجين بشكل طبيعي، أجبرونا على الصمت، واضعين أحدهم عند الباب مسترقاً السمع

لنا، وفي حالة ندّت من إحدانا صرخة أو عبرة، نراه يطرق الباب بعصبية طالباً السكوت صارخا بنا:

اسكتن يا كافرات يا فاجرات

ألا تعرفن السكوت؟

كنا نسمع إطلاق نار متتالياً، ليس بعيداً عن المدرسة التي وضعونا فيها، وفي مرة قال لنا أحدهم ضاحكا، هل تسمعن إطلاق النار؟ إنها كلاب سائبة قتلناها..

عرفنا بعد ذلك أنهم قتلوا أهلنا وأقرباءنا من الرجال والنساء كبيرات السن من الذين أسروهم.

قتلوا النساء الكبيرات بالسن! ترى هل كانت أمي معهن؟

الليل بدأ يزحف على المكان ونحن بيأسنا، لا ندري ما الذي سنلاقي وما يدبر لنا وماذا نفعل.

الوضع الذي نحن به أنسانا الجوع والعطش، أرواحنا خواء من كل شيء.

بعض الفتيات رمين برؤوسهن على الحائط وتظاهرن بالنوم لقلة الحيلة أو للهرب من واقع لا قدرة لهن على تغييره.

البعض يبكي بصمت ووجع، كنت أشعر ببكائهن المخنوق، بكاء غير مسموح له الخروج من فتحة الفم أو الأنف، راقبت كل حركة من زميلاتي البائسات والدمع يحرق أجفاني بصمت، ربما كنت أنا أكثرهن وعياً ودراسة وتجربة بالحياة لأنهن جميعاً يصغرنني بخمس أو ست سنوات.

حينما توقفت حركة السيارات والأصوات والناس، وبعد أن انقضى بعض الوقت من الليل فتحوا علينا الباب.

جاء ثلاثة رجال، تفحصونا مثل بضاعة، مرروا عيونهم على وجوهنا، وقاماتنا بعد أن أوقفونا صفاً وانتقوا منا ثلاثاً، أنا واثنتين من المسبيات معي..

سحبونا من شعورنا بالصراخ والإهانات، شعرتُ أن سائلاً لزجاً في رأسي يسيل من عيني ومن صدغي، أمسح وجهي لا أرى سوى رملٍ علق بي..

أمسكَ بي أحدهم بعصبية، سحبني بقوة وبسرعة، بطريقة همجية موجعة ليدخلني بصف فارغ إلا من حصيرة فرشت بجانب بعض المقاعد المدرسية المكسرة، دفعني ليلقيني عليها فقاومته بكل قواي، لكن يده هوت على رأسي كعصا من حديد، تكررت الضربات علي فألقتني أرضاً.

شعرت بدوار أفقدني الوعي وأصبحت الرؤية عندي غير واضحة.

كان نور عمود الكهرباء من الشارع يتسلل داخلاً الغرفة التي لا ستائر لها.

استطعت أن أراه كالشبح وأنا في شبه إغماءة، شبح يلهث متحركاً فوق نصفي الأسفل، حاولت الخلاص منه وأبعاده عني، لكن ضعفاً في جسدي ودواراً في رأسي منعاني من فعل هذا، بقيت ممددة كالذبيحة لتتناوب فوقي الأشباح، واحداً تلو الآخر حتى بلغوا أحد عشر موتاً.....

غيابي عن الدنيا يزداد مع كل شبح يعتليني، فأشعر أنني ألفظ أنفاسي وأنتظر غياباً أبديا يرحمني من كل هذا.

لم يكن يهمهم نصفي الأعلى ولم يحاولوا خلع كل ملابسي إنما رفعوها إلى الأعلى ومزقوا ملابسي الداخلية ليتسنى لهم ما أرادوه بين فخذيّ وهو كل ما يريدون..

بين الوعي واللاوعي استمع لبعض مفردات أميز منها:

أمير، كفار، دولتنا، باقية، سبايا، ولعنات لا تتوقف علينا وعلى ديانتنا...

عند الفجر شعرت باستعادة بعض وعيي وبأنهم تركوني.

لا أعرف كيف أعادوني إلى الصف مع بقية الفتيات.

كان نصفي الأسفل مليئاً بالسوائل والروائح، وكنت أشعر أن حجراً ثقيلاً يرقد على بطني، ويحرق ظهري بالوجع.....

الحب فاكهة السعداء، والجنس فاكهة الأشقياء

كان الحاج عبد الباري إمام الجامع في المحلة التي كانت أمل تسكن فيها.. حاضراً البرنامج، لقد عرفها، فالاسم مكتوب على الشاشة، الهيكل، الشعر، والصورة واضحة رغم التظليل.

نادى زوجته الحاجة هنية وهي تحاول إكمال آخر اللمسات على طعام الإفطار قبل أن يضرب المدفع.

هنية هنية.

اتركي كل شيء وتعالي هنا لتنظري..

أليست هذه الفاجرة هي أمل بنت أخت ماهر عامل البناء الأعرج الساكنين الخرابة الخلفية آخر الشارع والتي هربت بلا عودة قبل كم سنة؟

ثم يكلم نفسه:

نعم ها هو اسمها مكتوب على الشاشة، فان لم يكن وجهها واضحاً من التظليل، فاسمها لم يتغير.

أمل محسن، إنها هي بنت أخت ماهر الأعرج.

وحين لم يسمع جواباً، ضرب على الطاولة صارخاً.

ولك يا طرمة يا هنية لماذا لا تردين، هل أتكلم مع الحائط؟

تناهى صوت عبد الباري مع كلمات السخط والثورة وبعض كلمات الإهانة إلى سمع الحاجة هنية، فكلمة ولك يا طرمة، كلمة لا تقال لامرأة بعمرها بين الناس، لكن الحاج عبد الباري يعاملها أمام الناس باحترام وهذا يكفي.

أما فيما بينهما فهو يمون عليها أحياناً بضربات قد لا تخلف سوى كدمات على جسدها السمين، أو كلمات مُذلة تتحملها هي ما دامت غير مسموعة خارج نطاق العائلة، أو خارج حيطان المنزل، فهو والحق يقال كان دائماً يناديها أمام الناس بالحاجة، وهذا كفيل بأن تنسى بعض أفعاله المهينة لها، وكلمة الحاجة كانت تدعوها للفخر أمام أم عبد العظيم جارهم، وأم محمد بنت خال زوجها، وأمام جميع الأغراب الذين يأتون إلى الشيخ عبد الباري لسماع بعض التوضيحات الفقهية التي تصعب عليهم من أمور الحلال والحرام.

تركت الحاجة هنية كل شيء وجاءت، ماسحة يديها من أثر ماء بفوطة صغيرة، ناظرة بلهفة للشاشة الصغيرة، قائلة:

والله يا شيخنا أنا مثلما تعرف، لا أقرأ ولا أكتب، بس الرأس والشعر بهما شبه كبير منها، وإذا أنت قرأت اسمها، معنى ذلك أنها هي نفسها، يعني هل أنا أعرف أحسن منك؟ لا طبعا، العين لا تعلو على الحاجب، وتردف قائلة:

مسكين خالها ماهر الأعرج، لم يترك أحداً إلا وسأله عنها، كان يريد أن يغسل عاره بيديه، لكن الفاجرة ما أدري أين صارت وتركت وجهه أسود أمام الناس، لا يستطيع أن يحدق في الوجوه بقوة لأنه مكسور بعارها...

كانت أمل تعتقد أن خالها ماهراً قد لاحته يد الموت، مترافقة مع نحسها، وأخذته الشظايا شهيداً، لهذا كانت حينما تقوم بأي عمل تدرك أن لا أحد يستطيع اللحاق بها وقتلها، تظن أنها خرجت من الرقابة الاجتماعية.

حينما سألها مقدم البرنامج عن اسمها، أعطته اسمها الحقيقي من دون خوف، قائلاً لها سوف نغطي وجهك ولا يعرفك أحد..

آنذاك داهم أمل سؤال من الناشطة في حقوق المرأة وهي تضربها بالسؤال ضرباً مبرحاً من دون مقدمات ولا رحمة:

ما السبب الذي جعلك تهربين من بيت أهلك؟

تستعجل أمل الإجابة:

إنها أمي، كانت تضربني كثيراً وتعنفني ولا تمنحني أدنى حرية.

تضيف الناشطة:

هل هذا كل شيء؟ أم أن هناك دافعاً آخر دفعك للهرب، كأن يكون أحد قد أغراك بمال، أو شيء، أو أوعدك بوعد ما، فأغلب البنات في سنك يعانين من ضغوطات الأهل لكنهن لا يفكرن بالهرب وفعل ما فعلته أنت.

ترتبك الفتاة مفكرة قليلاً، هل تقول لها بأنها هربت من مكان يضطهدها؟

هل تقول بالمكان الآخر الذي كانت تلتجئ إليه لكنه يعبث بعمرها، ويخرب عليها نكهة الحياة؟

هل تقول لها إن خالها كان يفعل معها ما لا يقال حينما تهرب من أمها؟

هل تقول لها، أم أن موقفه في حمايتها يفسد عليها قول الحقيقة، فلولاه لربما كانت الآن معاقة بسبب من ضربات الأم المتكررة وعنفها غير المنتهي، والذي تسلطه عليها منذ أن وعت على الحياة، أو ربما كانت الآن في حكم الأموات لولا تلك الحماية التي خربت حياتها ودفعتها لتوصلها إلى ما هي عليه.

أمل مؤمنة أنها نحس، وبسببها استشهد الأب والأخ، لقد ترسخت الفكرة في ذهنها إلى الأبد حتى آمنت بها.

هل تقول إن خالها كان يستغل وضعها ليلقي بأحمال غرائزه بين فخذيها الطريتين مذ كانت في سن الثانية عشرة؟

هل تقول لهم كيف كان يدخل يده الدافئة الخشنة بين فخذيها، وكيف كان يعصر نهديها الفتيين كما البرتقالة، يوغل في اللمس الممنوع، في عتمة خوفها فترتجف حواسها، وتتفتح مساماتها، طالبة الغوص في العمق بحثاً عما تجهله، لكن عضلاتها تتقلص رافضة هذا الشذوذ الذي اعتادته كرهاً تارة ومستسلمة بارتخاء التعود واللاخيار تارة أخرى؟

هل تقول لها إن خالها كان يتلمس جسدها الحريري بشبق المحروم، يدخل تكورها اللامع بمتعة، ويلهث بلذته التي شوهت لذتها؟

كم التجأت إليه حتى في غيابه.

كان يترك لها الغرفة مفتوحة لتهرب من أمها ساعة الغضب، تقفل عليها الباب من الداخل حتى مجيء الخال الذي يهدئ الوضع، يحتضنها بعد أن يضربها ضرباً تمثيلياً خفيفاً أمام أمها لتنتهي المشكلة التي لا وجود لها أصلاً إلا في رأس الأم..

هل هربت من أمها حقا؟ أم من ماهر؟ أم من الاثنين معاً؟ أم أنها هربت من حياتها المشوهة، العسيرة، الخالية من الفرح والألوان، والتي لا تشعر معها بأنها شابة وبأن لها كبقية البنات مستقبلاً، ورجلاً تحبه، وأحلاماً تريد تحقيقها؟

ما هي أحلامها؟ أينها؟ هل يحق لها أن تحلم؟

هل أن عصبية أمها وعنفها كانا السبب؟

تحاول الفتاة مواجهة نفسها بعد أن طُرح عليها السؤال، لكنها لن تصل إلى نتيجة، خاصة أنها تعتقد أن خالها قد استشهد، فيمتلئ قلبها بمشاعر الشفقة والعطف عليه لتحاول بناء قبر على ما كان بينهما وتوقظ في داخلها إحساس الامتنان، معتبرة إياه منقذها وحاميها في الأوقات العسيرة.

تصمت أمل قاضمة حواس جلدها التي لا تعرف لونه. ترتبك مؤكدة على إجابتها الأولى دون إضافات.

يتابع الشيخ عبد الباري البرنامج بانفعال واهتمام شديدين، تغلي الدماء في رأسه محدثاً نفسه بعصبية واستنكار وبصوت مسموع:

ما هذا الهراء في البرنامج؟

كيف ينسون أن هناك نصاً واضحاً بخصوص الزنا، فالزاني والزانية لا بد من رجمهما إن كانا محصنين وجلدهما إن لم يكونا كذلك؟

الناس نسيت كل تعاليم دينها، فأصبحت تتخبط في أفعال الشياطين من دون علم، ولماذا لم يستضيفوني في البرنامج ليكون البرنامج متكاملاً، فرجل القانون لا ضرورة له.

الشريعة مصدر القانون، أما هذه العجوز الشمطاء، فلا داعي لوجودها لأن هؤلاء النسوة، هن السبب في تحريض البنات وتخريب العوائل بكلامهن المشين عن حقوق المرأة، والكلام الفارغ..

يتلفت بين جدران الغرفة كمن يبحث عن شيء قائلاً لنفسه:

والله لا بد من القيام بشيء ما، لن أترك الأمور تفلت من أيدي العلماء والذين يشعرون بالمسؤولية عن الدين والدولة.

جولة من الإعلانات..

إعلان تخرج به فتاة لبنانية تمشط شعرها اللامع، مشجعة الفتيات على شراء شامبو شهير، تنقل المشاهد بلهجتها الجذابة الناعمة إلى أجواء رقيقة فيها دعة وغنج تضفي على برامج الفضائية القاسية شيئاً من بهجة الدنيا.

يحدق بها الشيخ عبد الباري وكأنه يريد التهامها متمتماً بصوت خفيض:

هذه هي النسوان، ليس مثل حرمتي التي تشبه حارس البناية.

يعود إرسال بث البرنامج بعد جولة من الإعلانات.

تجلس أمل منتصبة، تتصرف وكأنها امرأة أعمال، واثقة من نفسها ومما عندها، تضع الساق على الساق، ناظرة للآخرين الجالسين معها على ذات الطاولة برضا ناتج من إحساسها بالمساواة معهم، فهي الضيفة التي تعتبر عماد البرنامج، والتي ينتظر ردها بفارغ الصبر، فلولا ردودها لما استمر هذا اللقاء، تشعر الفتاة بأن الدهشة

التي تحدثها إجاباتها يعطيها قوة التحدي والامتياز على سواها، فتستمر بالإجابة من دون انكسار.

انكسار!

كلمة ينتظرها الإنسان الشرقي والرجل خاصة من المرأة، بل هي عنده وسيلة من وسائل الجذب، وأمل الآن صادقة، لا تريد أن تجذب أحداً، هي في جلسة جدية واجتماع مهم.

قد تستخدم تمثيل دور المنكسرة أمام بعض مرتاديها الذين يحبون ذلك، فقد صارت لها معرفة بالفطرة، أو لتقل الحقيقة مع نفسها، لها معرفة بالتجربة معهم، فالرجال العرب يحبون المنكسرة، والمهيضة الجناح ليغتصبوها، يكسرون عظامها تحت أجسادهم الهمجية بشبق، ليتوثب بداخلهم المارد المتعطش للذة.

لكن ليس جميعهم هكذا والحق يقال، فبعضهم يُثار بالوقاحة، تستطيع أمل أن تكون لبقة بكلمات بلا حياء، وذلك باستعارتها بعض مقولات وحركات المنحرفات اللواتي رأتهن بحياتها في الأزقة والشوارع، أو في بعض المسلسلات والأفلام العربية..

سهل عليها جداً أن تؤدي الدور الآن.

والحقيقة هي أن أغلبهم يحب الانكسار، ليحتضنها بحرارة، شاعراً باللذة حين إخضاع الأنثى، كذكور القطط التي تهجم على الأنثى عضاً وانفعالاً قبل الفعل الجنسي، أو كالديوك التي تتصارع مع الدجاجة، فتنتف ريشها قبل السيطرة عليها واعتلاء ظهرها- أتمنى لو أضع خطوطاً كثيرة تحت كلمة ظهرها- لأنهم يعشقون هذا النوع

من الاعتلاء، تتقد عندهم هرمونات الرغبة أكثر حين السيطرة بما يشبه السادية، يريدون أكل الفريسة وتقطيع لحمها الشهي، وكأن عندهم حنيناً إلى الغابة التي ما زالوا لم يفارقوها منذ آلاف السنين.

قد يقرصها البعض بأماكن حساسة وبوجع لذيذ، نعم يصبح الوجع لذيذا حتما إن كان العنف لذة عند الآخر، يسحقها تحته بشهية منتظراً أن تنضج ألماً لتصرخ من الوجع والذل، دافعاً لها أكثر مما تطلب وكأنه يعشقها حقاً ويمتلكها، بل يستأثر بها- ناسياً أو متناسياً- أنها امرأة معروضة للبيع ولمن يدفع.

عجيب أمر الوجع واللذة هذا!

من مفكرتي

وأنا أكتب الآن تذكرت أن أغلب إجابات الشباب والشابات بالفيسبوك حينما سألوهم عن موقفهم من العنف بالجنس، أجابوا:

قليل من الوجع بالممارسة الجنسية يلد الإثارة!

لمْ نسأل أنفسنا يوماً ما هذا الإحساس المازوخي، أو بالمقابل السادي الذي عند الإنسان؟

أليس هو من موروثات حيوانية باقية به من زمن التحول؟

لا يعنيني أن كان دارون على حق أو على خطأ، لكنني أرى القطط قبل التناسل، تنشب معركة كبيرة فيما بين الأنثى والذكر، قبل استسلام الأنثى للذةٍ تدعوها بعد ذهاب الذكر إلى التحرك بحركات دالة على الارتواء من المتعة وتتقلب بدعة ورغبة توحي بالانتشاء والسعادة.

الغريزة والعقل..

الظاهر من كل الوقائع والأحداث على الأرض أن الغريزة الحيوانية انتصرت، والحيوان في داخلنا هو الفائز.....

حينما يكون الحديث عن المرأة والرجل وطبيعتهما، أتمنى أنني ما عرفت طبيعة الرجل وقرأت عنها.

كنت غافلة وكنت أصدق حب الرجل، وليتني ما عرفت كيف يعمل جسد الرجل، ليضطر غالباً إلى الكذب والاحتيال بأية وسيلة على المرأة، من أجل الغريزة الضاغطة عليه، والتي تدفعه أن يقول لحظتها لأقبح امرأة بأنها ملكة جمال العالم، وأنه يحبها، فتصدق قوله إذ تعتقد أنه يراها أجمل النساء..

كيف أستطيع الآن أن أثق برجل، وأعرف صدقه من كذبه؟

ما الذي يضمن لي وفاء الرجل، أنا المرأة مختلفة الطبيعة عنه، والتي إن أحبت رجلا لا تتقبل سواه؟

أكبر ظلم للمرأة هو طبيعة الرجل.

وحدها المرأة المنحرفة وصاحبة التجارب تعرف كل شيء عن الرجل ربما.

حتى أنا دارسة الطب – قالت صديقتي الطبيبة –وأعرف أموراً علمية عن طبيعة الرجل، قد لا أفهم كما تفهم المرأة المجربة، وأملي الوحيد هو أن المعلومات العلمية لا تشبه الواقع الاجتماعي، أما تلك المتمرسة بالرجال فهي الأقدر على معرفة الحقيقة مع الأسف.

هاهي أمل في اللقاء تمسك بزمام الأمور، كالأزرار في القميص الذي ترتديه، تعرف متى تفتحه، وأمام مَنْ، ومتى تغلقهُ وأمام مَنْ.

إنه عملها الذي صار أهم شيء في حياتها.

توجهت الناشطة بسؤال آخر للفتاة وعيناها تريدان اختراق ما بداخل هذا الكائن المثير للجدل الجالس للتحقيق:

كيف وصلتِ إلى هذا الطريق، وهل هناك من ساعدك في ذلك، وهل تعرفين أنه طريق الخطايا يجب على الفتيات الابتعاد عنه ليعشن بشرف؟

تنظر الفتاة بشيء من اللامبالاة بعد أن سمعت كلمة الشرف، الكلمة المعقدة، المخيفة، عالية المقام، غير المفهومة، الشائعة في كل رهط ومجموعة بشرية، والتي لا تفسير ولا معنى واحد لها، حيث لا يذكر معها أي سبب ودافع لوجودها أو عدمه، لأنها الهدف، والغاية، والوسيلة.

ثم تجيب وكأنها تسخر من هذا المعنى المجرد:

نعم أعرف إنه خطأ، لكن لا خيار لي، فأما الموت جوعاً وبرداً، وأما هذا الطريق.

أما الذي ساعدني في ولوجه، فهي امرأة علمتني أن أمارس هذا العمل.

تحرج الناشطة من أجوبة الفتاة، محاولة إظهار خجلها أمام المشاهدين بأن تغض طرفها إلى الأسفل، مدعية غرابة المفاجأة، مما يدفعها لضرب الفتاة بسؤال آخر وكأنها تعرف الإجابة مسبقا ومتأكدة منها، بل كأن الفتاة قد أنقذتها بإيجاد سؤال جديد، وبسرعة قبل أن يختطف منها أحد الحاضرين هذا السؤال تقول:

وهل تأخذ المرأة– معلمتك– منك نصيباً لها أو نسبة مما تحصلين عليه؟

لا، لا تأخذ شيئاً وهي تعاملني مثل ابنتها.

جوابها يخذل الناشطة، وكأنما يسقط في يدها، فمعلوماتها أن المرأة هذه سمسارة، والسماسرة لابد وأن يأخذوا حصصهم من الداعرات، فتتمتم بعض كلمات مسموعة مع الضيف الآخر قائلة:

قد لا تريد أمل أن تسيء للمرأة التي تعتبرها صاحبة فضل عليها، ثم يلتفت المذيع إلى القانوني متسائلاً هل لديك ما تضيف؟

ليس للوجعِ فائدة سوى صنع المعجزات!!

كان فاضل الرحماني الباحث الاجتماعي جالساً في بيته يتابع البرنامج الذي استضاف أمل، يحدق مستغرباً، يشاركه الجلوس صديقه العاطل عن العمل نافع، والذي تخرج في كلية التربية.

استغرب فاضل كيف أن رجل القانون المستضاف في البرنامج يأتي بنصوص قانونية جامدة وبلا ذكر لأسبابٍ تقديرية على الأقل، أو تحليل لوضع اجتماعي أنتج وضعاً غير طبيعي، ومن دون أن يرى أمامه المشكلة المتجسدة بهذه الشابة.

يتحرق قائلاً:

لو كنت أنا من استضافوه بالبرنامج لاستطعت أن أخبرهم عن أرقام الدعارة عندنا، ولاستطعت أن أدلهم على حلول ناجعة، ولكنت على الأقل جعلت البرنامج أكثر حيوية مما هو عليه الآن.

ثم يخاطب نافع قائلاً:

البرنامج بائس جدا وكأنه أراد فقط التشهير بتلك الفتاة غير المحظوظة والضائعة في زمن أغبر، ثم يستفسر من نافع:

لو كنت أنت مكان هذا المذيع، ألم تكن أفضل منه في التقديم، وفي الإطلالة وفي الصوت؟

ألا ترى كيف يسأل والابتسامة لا تفارق شفتيه وكأنه في سيرك، يضحك هازئاً:

الظاهر أن المخرج قد أكد على ضرورة البشاشة، لأن الشعب بحاجة إلى المرح وقد مللنا الحزن، فصار هذا مثل البقرة الضاحكة.

ثم قال باندهاش ملتفتاً إلى صديقه ومؤكداً على النظر في وجهه:

عجيب أمر الإعلاميين عندنا، يصرخون بأصوات جهورية، يقرؤون الأخبار بطريقة البيانات النارية التي تصدر عن قادتنا الأشاوس الذين غالباً ما كانوا يضربون كل من تسول له نفسه بيد من حديد، ثم يرد نافع:

نعم صحيح، لكن لماذا يتحمس الإعلاميون لهم هكذا؟

لأنهم عينوا بالواسطات يا صديقي هل نسيت.

نعم، كل شيء بالمحاصصة والواسطة، لم يتغير شيء.

إن لم يكن لديك حزب يدافع عنك، فأنت غريب في هذا البلد، يتوسع بالشرح قائلاً:

شيء يشبه نظام القطيع، فأما الحزب، أو المنظمة، أو التجمع، أو الاتحاد، وإلا أنت فرد غير مهم، وغير مؤثر، ولا يسأل بحالتك

ووضعك أحد، لا أحد يهتم لصوتك، والذي يعنيهم هو هل أنت مسؤول عن تنظيم؟

فان قلت لا، ترى أن آمالهم بك قد خابت، عندها تتغير نظرتهم الكيّسة لك والتي لمستها بداية اللقاء.

يكمل فاضل موجها الأسئلة لنافع:

أرأيت البارحة مقدمة البرنامج هذه التي ترتدي الحجاب، وتضع طبقة كثيفة من المكياج على وجهها، وتضع خرزة زرقاء فوق الحجاب؟

مضحكة والله مخجلة، ترتدي كل ما لديها من العقود، وتخشخش في الأساور كالأحصنة كلما حركت يديها..

أو تلك الأخرى، صاحبة الشعر الطويل، التي تسحب شعرها في كل التفاتة لها وهي تتحدث مع الضيف، وكأنها تجلس في صالون حلاقة أمام المرآة ثم هل سمعت صوتها؟

يا أخي إن في صوتها نبرة تجعلني لا أستطيع الاستمرار بسماع الأخبار حينما تقرؤها، نبرة فيها كذب، ومحاولة لتنعيم الصوت، من أجل الإغراء، من أين جاؤوا بهذه العاهات، لا أدري، يرد نافع قائلاً: نعم رأيتها، المظهر ليس مهمّاً أمام أسلوبها وهي تقابل رجلاً بروفسوراً قضى عمره في تدريس طلاب الجامعة مادة التاريخ وكاتباً مثقفاً وهي لا تكاد تعرف جملة صحيحة باللغة العربية، تصور أنها تخاطبه بأنتَ، دونما تقول حضرتك للاحترام وهو الرجل الكبير الوقور الذي تخرجت على يديه أجيال من طلاب الجامعة.

هزلت يا صديقي والإعلام صار عشوائياً وغبياً.

حتما تراها عينت بالواسطة أو الله أعلم صديقة مَن من المسؤولين.

هي ليست للإعلام وهم يعرفون ذلك بل هي لشيء آخر تماماً، ثم يعدل جلسته قائلاً وكأنه يعطي درساً:

هناك امرأة لا تستطيع أن تتخيلها سوى بالمطبخ، وهناك امرأة لا تستطيع أن تتخيلها سوى بالفراش، وهناك امرأة لا تستطيع أن تتخيلها سوى بالمقابر تندب، وهناك امرأة لا تستطيع أن تتخيلها سوى راقصة على مسرح، وأخرى تراها تلتهم الرجال في ملهى، وأخرى لا تراها سوى فراشة عاشقة تتنقل بين الأزهار.

هكذا يا صديقي، ولكن هذه المرأة التي تعمل اليوم مقدمة برنامج ليست للإعلام أبدا؟ ثم يضيف متنهداً:

لكن هناك امرأة هي كل شيء، تجد بها كلهن وكل مواهبهن..

– على مهلك، على مهلك، وهل أنت تعرف كل هذه النماذج من النساء؟

الظاهر أنني لم أعرفك أبداً، كم أنا بريء وغافل عنك وأنت زير نساء.

– صدقني أنا لا أعرف من النساء إلا التنظير فلا يغرنك كلامي، وهل نحن في وضع سمح لنا بأن نعرف النساء، يا حسرتي علينا نخرج من حرب لندخل أخرى، هذا عدا الرعب والمخابرات، وهلع الحزب الحاكم والحصار وبؤسه الذي شبعنا منه سنين طويلة.

لقد نسينا إننا رجال في كثير من المواقف، حيث الموت أقرب لنا من كل شيء. إنسَ ما قلته لك يا رجل، فإن لم أتفلسف أمامك، فأمام مَن أتفلسف؟ خاصة وأنا من شعب يعشق التنظير والتفلسف في كل شيء.

– نعم أنا استمعت لتنظيراتك ولكن ألا تعتقد إن إحدى المشاكل التي تعانيها المرأة هو أن العالم لا يعترف لها بالاستقلالية الذاتية، ويرى ذاتها مرتبطاً بالآخر، فعندما تحب المرأة أن تفعل شيئاً، كأن تصبغ شعرها أو تلبس شيئاً ما يعجبها، فالناس لا يقولون إنها أحبت ذلك لذاتها، إنما ينسبون لها الرغبة باجتذاب الرجل، وقس على ذلك أفعالاً كثيرة.

صفق فاضل الرحماني لنافع بيديه قائلاً:

برافو، والله إنك أفضل مني وأكثر إنسانية، والله يا نافع إن جميع النساء ضحايانا، فنحن الذين ندخل الخوف في قلوبهن صغاراً، ونغريهن كباراً، ونقتلهن إن اخطأن، ونعذبهن في البيوت، والسجون، وحتى في الملاهي.

آه لو كنت قرأت ما قرأت من الروايات التي كتبت عن قهر النساء، لعرفت أننا قوم لا يمكن أن نتطور ولا يبارك الله في أفعالنا، طالما قهرنا هذا المخلوق الجميل والضعيف المدعو امرأة.

. صدقني أنت صح

حتى المنحرفات نحن سبب انحرافهن، كم لدى الرجل من جبروت، وكم يعشق الحروب والمشاكل التي أولى ضحاياه المرأة، ها هي

حروبنا تخلف الأرامل، والثكالى، واليتيمات، والعاهرات، والمريضات، والمعقدات؟

أليست قرارات الحرب كلها رجولية تقتاد الشعوب بعنجهية نحو الموت والدمار ووو لنكن صريحين في الحق، أليست طبيعة الرجل الذي يُثار لمجرد صورة، أو كلمة، أو مشهد ويريد أن يلج شيطانه الذي تضطهده شهواته، هو سبب وجود بائعات الجسد؟

كل يوم أرى أختي والعبء الذي تحملته بعد استشهاد زوجها، وتيتم ستة أولاد أحدهم معاق بشظية من بركات القادسية، أشفق عليها، وأتمنى لو أمنحها كل ما عندي، وهذا الشعور جعلني لا أفكر بالزواج، فرؤية أولاد أختي وهم عائدون من مدارسهم يسعدني، كما تسعدني ابتسامة رضا ودعوة من أختي كل صباح.

هل تصدق يا عزيزي أنني اعتقدتك لا تتقبل الحديث عن المرأة ودورها وحقوقها؟

وجدتك فعلا تتقن الدفاع عن المرأة. يبتسم مازحا:

ولكن تعال، وقل لي من أين لك هذا؟

هل وقعت بحب مثقفة جعلتك ترى نور الحقيقة أم ماذا؟

يتلعثم نافع:

لا لا، لكنني تذكرت الفتاة التي كانت في البرنامج، فشعرت بأننا جميعا مذنبون بحقها.

إنها طفلة ولا أحد يعرف معاناتها، ولماذا تصرفت بهذا الشكل، لدي شعور إنها مسكينة، ولو كانت ظروفها أحسن لما فعلت هذا بنفسها وبأهلها.

على فكرة هي لم تتحدث كثيراً عن أهلها وظروفهم، لكن عندي إحساساً أنها كانت مجبرة وليست مخيرة..

تجدها تخجل من ذكر فقرهم أمام الجمهور.

وقد تجدها تحبهم إلى الحد الذي لا تريد أن تقول أنها – وهي الداعرة– تنتمي إليهم..

لا أدري ربما، ولكن أعتقد إننا نتعب أنفسنا بالبرنامج أكثر مما يستحق.

يا سيدي يوجد من أمثال هذه الفتاة آلاف مؤلفة ببلداننا العربية، وهل هي آخر المنحرفات؟

إننا مجتمع تقاليده الاجتماعية، وسياساته الخاطئة، وفلسفته تنجب الكثير من العاهرات، أو المعقدات وهن في بطون أمهاتهن...

ثم كرر فاضل الرحماني سؤاله لنافع:

لم تقل لي هل هناك حب؟

أتمنى ذلك فالحب يا صديقي هبة سماوية لا يعرف قيمتها إلا من يتمتع بها.

يسرح نافع مبتسما ابتسامة مخفية بعض الشيء، فيكرر فاضل السؤال:

أجب ما بك سرحت؟

إذن بعد كل هذا الذهول الذي أنت فيه لا يمكنك أن تنكر، تعرف أن النبي محمد قال من أحب وعف ومات فهو شهيد؟

يتململ نافع قائلاً:

أووووووووووه أيضاً شهيد، نحن لا نبحث إلا عن الموت والشهادة، حتى في الحب، ألا يكفينا ملايين الشهداء في الحرب، أرجوك قل لي شيئاً آخر، ألا يكفينا أن الشاعر نزار قباني نظمها شعراً مغنى حين قال:

يا ولدي قد مات شهيداً من مات فداءً للمحبوب.

صرنا نتغنى بها دائماً، وكأننا نغسل أدمغتنا ببيت الشعر هذا؟ رد فاضل:

– نعم فرغم كل هذه الحروب والدمارات لن نملّ من الموت، وما زلنا نمجد الموت ونمجد الاستشهاد، وكأنما لا توجد قيمة أخرى سواهما في الدنيا..

قال نافع مترجياً فاضل:

فاضل أرجوك، بما أنك باحث اجتماعي، أرجوك ابحث في الأسباب التي جعلتنا هكذا، ولماذا نحب أن نتعجل الرحيل من هذه الدنيا دون الغرب الذي يعمل المعجزات حتى ينقذ الناس من الموت، فهم كل يوم يكتشفون لقاحاً لمرض ما، ونحن نعتبر المرض عطية من الله وابتلاء للمؤمن المقرب إلى السماء، فرد فاضل مؤكداً:

صحيح بدليل هم معدل العمر عندهم أكبر منا بكثير، الغرب مليء بالعجائز لأنهم لا يموتون بسرعة مثلنا ولا يستسلمون للموت، أما

نحن فمنذ عمر الأربعين يبدأ الشخص منا يقول إنني كبير السن، بينما هم يقولون، إن الحياة تبتدئ بعد الخامسة والستين، تصور تبتدئ!

رغم أن أغلب ما نعانيه من مشكلات سياسية، سببها الغرب، تتبعها مشاكل اقتصادية واجتماعية لنكره الحياة ونتمنى الموت؟ ثم إن الملل من الحياة الذي نشعر به أحياناً، ألا تعتقد إنه وجع خفي لا نعرف سببه؟

نسيت شيئاً مهماً، ثم يبتسم قائلاً:

إن النبيذ الذي يشربونه في الغرب يطيل أعمارهم.

لقد قرأت إنه يحتوي على مواد مضادة للأكسدة

ويضيف باشتهاء وبعطش:

آه أين مني أوروبا العجوز لأعيش بها ولو كانت عجوزاً مدلية ساقيها على قبر..

المهم دعنا من كل هذا ولنبتدئ، فلنقلدهم ولو ليوم واحد..

قال نافع ضاحكا:

لكننا الآن لسنا في عمر الستين لا بد وأن نعيش حتى ذلك الوقت لنبتدئ.. يضحكان وهما يشربان جرعات القهوة..

هيام

نافع شاب وسيم، بشعر أسود كث حليق بشكل جذاب وعصري، أسمر امتزجت سمرته بشحوبٍ محبب أكسبه جاذبية، عيناه سوداوان متوسطتا الحجم لكنهما عميقتان، فيهما من البراءة، والرومانسية، والذكاء ما يجعلهما مضيئتين كنجمتين ساحرتين، لم يكن طويلاً ولا قصيراً، لكن قامته حلوة، ولافتة للنظر، ممتلئ برجولة طاغية، جذّابٌ ومحبوب من قبل النساء، وهذا ما يحرجه في مواقف عديدة، في بلد الملايين من العوانس، والأرامل، والمطلقات.

في غرفتها الصغيرة المجاورة للمطبخ، جلست هيام ترتب خزانة ملابسها وهي تمر على الملابس متذكرة بها مناسبات ارتدائها، ممزوجة بحنين لزمن مرّ، أو كان وقتاً جميلاً تتمنى استعادته أو تكراره، فهي كلما فكرت بالاستغناء عن قطعة، تعود لارتدائها فتجدها جميلة، تنظر إلى المرآة محدقة بجسدها ومعجبة به، تعيد القطعة إلى مكانها محدثة نفسها:

لماذا هكذا أنا دائماً، عندما أحب أتعلق، وإن كان الذي تعلقت به شيئاً كبلوزة أو بنطال، كثير من المرات أراني أرتدي فستاناً قد تغير طرازه لكنني أجده الأجمل وأحبه كمن يحب مخلوقاً حيّاً.

قد لا يصدقني الناس، لكنني فعلاً أشعر بالتآلف مع أشيائي، وكأن كل شيء لدي يشكل عائلتي ويكملها، فالثوب الذي أشتريه أحبه، أعتاد على طرازه ولا أتمنى أن ينتهي استعماله فيصبح نشازا، أبقى أبحث في السوق عن آخر يشبهه.

أحيانا يعتقد البعض أنني بخيلة أحتفظ ببعض ملابسي القديمة وأرتديها، هم لا يدركون تعلقي بها وعدم رغبتي بفراقها، ليست الملابس فقط، إنما المسلسلات القديمة والأفلام التي رأيتها قبلا، أفرح لو أعيد بثّها بعد أعوام وأتابعها من جديد لأنني أشتاق لأبطالها وكأنهم سيقولون ما هو جديد، أو يفعلون أشياء تجعلني أطمئن عليهم، فكيف بي وأنا أحب رجلاً، من لحم ودم؟

لا يعرف الآخرون أن الملابس تشكل لي جزءاً من حب لا أستطيع التفريط به باسم المودة وجنونها، لهذا أنا لا التزم بالمودة كثيراً، إلا إذا أصبح اللباس غريباً جداً ومثيراً للسخرية عندها أتخلى عنه.

هكذا أنا، حتى الأماكن أتعلق بها فأعتادها، وأبكي إن فارقت مكاناً عشت به، حتى لو سكنته شهراً واحداً من الزمن.

ترى هل نافع يشبهني في هذا؟

من يدري ربما هو أكثر مني، فهو لم يترك الاتصال بي كل نصف ساعة أحيانا ليطمئن عليَّ ويعرف كل شيء عني.

تتوقف عما تقوم به كأنها تذكرت أمراً هاماً، تظل جامدة طوال لحظات، غارقة بالتفكير، ثم محدثة نفسها:

لا أدري إن كانت صديقتي إيمان على حق حين نبهتني لأعرف نافع إن كان من النوع المريض بالشك والغيرة أم لا، حيث قالت إن من يتصل كثيراً، وبشكل فوق العادة فهو شكاك ويريد أن يراقب المرأة بدوافع من مرضه، ترى أين هي الحقيقة وكيف أعرف؟

إنه يتصل بي كل نصف ساعة غالباً.

ها هو الهاتف يرن فتسرع هيام لتتكلم بالتلفون بصوت مليء بالرقة والعذوبة، حتى ليشعر المرء أنها ستذوب، وتصبح مجرد خيط شوق هلامي، رفيع، يدخل الهاتف ويصل نافع عبر الأثير..

البحث عن أمل

التهم الشيخ عبد الباري ما قدم له من طعام إفطار شهي يعج بالأطايب، تحلى بالبقلاوة المحشوة بالفستق والجوز بعد الإفطار.
لم يحن موعد آذان العشاء بعد، أسرع الشيخ وقبل موعده المعهود للقاء ربه في الصلاة، كان يتعجل لقاء ماهر ليخبره بهذا الخبر الذي سيغير مجرى حياته وتهتز له كل أحاسيسه المجروحة، حوقل وبسمل وتوضأ هارعاً إلى المسجد.
دخل المسجد متلفتاً، باحثاً عن شخص ما، لكنه لم يسأل عن أي أحد.
رفع الأذان واصطف المصلون وراء الشيخ المربك ذلك اليوم، كان يصلي ويلتفت باحثاً عن ماهر الأعرج.
تعجب المصلون من الشيخ، فهو على غير عادته، اختار أقصر السور القرآنية واختصر كل شيء وما زال يتلفت..
بعد انتهاء الصلاة، تمتم رحيم الخياط الواقف في الصف الثاني من المصلين مع جاره أبي عبد الله، قائلاً:

أقطع ذراعي إن كان الشيخ عبد الباري اليوم طبيعياً.
أجابه جاره:
انه هكذا دائماً رجل غير وقور، والحقيقة هذا حظنا جعلنا من المصلين وراء رجل غير معروفة نواياه.
لقد اغتنى بطريقة سريعة وعجيبة، لكننا لا نملك إلا أن نصلي وراءه، فهذا الجامع هو الأقرب إلينا، ولنا الله لنبقى متعكزين على نوايانا، قل إنما الأعمال بالنيات
يرد رحيم الخياط:
نعم وهذا مكتوب علينا، لكن لا أحد يجبر ذاكرتنا أن تنسى كيف أصبح الشيخ عبد الباري إماماً للمسجد، هل تتذكر الشيخ يوسف، رحمة الله عليه أضاعه نظام صدام في السجون ولم يعطوا عائلته سوى ورقة كتبوا عليها اسمه وجملة "تم إعدامه".
كان شيخاً مؤمناً بحق يخشى الله ويحب الناس، لم يقل أو يفعل شيئاً سوى أنه دعا المولى عزّ وجل أن يزيح الغمّة عن هذه الأمّة.
كانت الحرب تلتهم الأخضر واليابس، فما كان من أزلام مخابرات صدام إلا أن أخذوه بعد الصلاة مباشرة من دون عودة للمنزل، ولم يعد بعد ذلك جثماناً، حتى جثمانه لم يستدل عليه، فتشت زوجته وابنتاه في المقابر الجماعية ولم يعثرن على أثر له..
يضيف رحيم الخياط مؤكداً:
وكيف يعثرون على أثره بعد ما يقارب عشرين عاماً؟

هل تتذكر يا صديقي، بعد اختفائه بأيام فقط، عينوا الشيخ عبد الباري إماما لمسجد منطقتنا، وصارت دعواته لله حكوميّة، كما أراد المسؤولون والجلاوزة الذين يقتلون الناس بسبب أو من دونه..
هل تعلم أننا إن بقينا نقهر بأرواحنا هكذا سنموت بأسرع مما نتوقع؟

خطوة الصمت

مثل إبرة في كومة قش، يفتش ماهر الأعرج عن أمل، في كل مكان ولَم يجدها، في الأزقة، في الطرقات، في بيوت المعارف والجيران، في الدكاكين، حتى في المزابل والمقابر، يستفسر عنها من صديقات الطفولة، حينما كانت في المدرسة، يسأل عنها حتى مخدته، يتذكر رائحتها، يستمني على الحلم بنعومتها، يرتجفُ خوفاً على فضحها ما كان قد أجرمه بحقها.

ثم يحدث نفسه ويدافع عن أفعاله بتساؤل:

هل الجريمة أن ينجدها من أمها؟ أم الجريمة أن يمسد جسدها البض بيديه، فيثار بنعومتها ويرتوي بجمالها؟

ترى هل جرى لها مكروه فهربت؟

هل خطفها أحد ما؟

هل قتلت بانفجار أو رصاص عشوائي كما يحصل هذه الأيام؟

هل أصبحت حاملاً فهربت؟

لا لا، إنني ما كنت أقربها كزوج وزوجة، إنما، إنما، ويبقى متردداً حتى عن النطق بالحقيقة مع نفسه..

لتواجه نفسك يا ماهر وتعترف مع ذاتك، إنك في المرات الأخيرة قلبتها على بطنها، مارست معها شيئا غير معتاد، ممارسة مؤلمة ما كانت لتريدها، وهل أرادت هي يوماً ما فعلته معها؟ لم تكن نائمة، كانت تتوجع وقبلت بشروطك لأنك ملجؤها الوحيد.

تفو، تفو، كم أنا حقير

هل هربت وستفضح فعلتي

أين أجدها لأمحو عاري.

تتناهب ماهر حالات متناقضة، سلباً وإيجابا، فيخاطب نفسه:

عارك يا كلب يا ماهر؟

أين هو عارك، وهي الطفلة التي تصرفت معها أنت بانحطاط؟..

كأن الأرض انشقت وابتلعتها، اختفى كل شيء منها، حتى رائحتها على الفراش.

انقضى أثرها سريعاً وكالحلم، جاءت ومضت.

كيف مضت بلا عودة؟

هل وقعت بأيدي من قادها إلى عملية انتحارية وانفجرت وضاع أثرها، ليت الذي حصل معها هو ذاك، أحسن من الفضيحة.

هكذا كان ماهر يهذي، بين اعترافه بحقارته، وبين خوفه من الفضيحة المزعومة، ورغبته بقتلها رغم براءتها.

ماهر الأعرج لن يجدها بعد الآن حتماً، فها هي مستلقية على السرير الوثير في فندق خمس نجوم، مع ذلك الثري الأجش الذي رافقته اليوم، والذي يسألها:

ما هذه البقعة على ساقك أيتها الجميلة الصغيرة؟
إنها أثر وقعة من على الدرج.

الموت

قيل : شبيه الشيء منجذب أليه

أراني اليوم أقارب وأشابه، بين الظلم الذي يقهرنا ويسحق إحساسنا بالكرامة جميعا، نحن أبناء هذه البلدان العربية الماضية إلى الهاوية اليوم 15-9-2014

أنا في لاهاي، أشاهد برنامجاً في قناة عربية حول ذكرى مجزرة صبرا وشاتيلا عام 1982..

تتقد عندي ذكريات ذلك الزمن الصعب الذي عشته في لبنان والحرب دائرة رحاها بين الفصائل من جهة، وغارات إسرائيل من جهة أخرى.

صور المجازر التي ارتكبت ضد الفلسطينيين في ذهني وفي الصحف والتلفزيونات، مجازر مرعبة ولا تنسى أبداً.

هناك من ينتقد العرب على ضعفهم، العديد من المفكرين والناس العاديين صاروا يكرهون العرب بسبب ضعفهم، يرن في ذهني شعر أبى القاسم الشابي:

فويلٌ لمن أسلمته الحياة إلى الضعف والعلم المندحر

منذ طفولتي حتى الآن أرى المجازر والعالم يصمت.

رأيت مجزرة صبرا وشاتيلا في لبنان، رأيت الجثث ورأيت أم العبد اللبنانية الأصل التي كانت تعمل بنفس المكتب الذي عملت به، تقدم لنا الشاي والقهوة.... آه يا أم العبد

كنا نقول لها أنا وزملائي مازحين معها:

يا أم عبدٍ جزاك الله مغفرة ردي علينا شاينا الكانا

نمازحها ونقول لها إنك أفضل من يدعم نضالنا بكؤوس الشاي والقهوة.

رأيت صورة أم العبد جثة هامدة مقطعة الأوصال بأخامص الرشاشات، في يدها هويتها اللبنانية، كانت تعتقد أن الفلسطينيين هم وحدهم المطلوبون، وهي اللبنانية الهوية ستنجيها هويتها، وما كانت تعلم أن الذبح لم يكن على الهوية فقط، بل على العرق، والانتماء، وعلى حسابات كنا نجهلها من قبل، ونجهل القتل للقضاء على أكثر بني البشر وتكوين حكومة عالمية من ربع سكان الأرض.

قرأت ما كتبه صحفي إنكليزي لجريدة الغارديان البريطانية حين كان هناك قوة دولية من المفترض أن تقوم بمهمة حماية المدنيين، ولكنهم لم يفعلوا.

قال مراسل الغارديان:

كنت في بيروت مع تلك القوات الدولية عندما رأيت المجزرة، تم تنفيذها ليلاً، حيث سرقوا أرواح المدنيين الأبرياء، تصورت أن الدنيا انقلبت وأن هذه الساعة هي نهاية العالم.

كان يكتب وهو غير مصدق أن هذا قد وقع فعلاً، وقد نشر ما كتبه في الجريدة التي قرأها العالم كله، بل وترجمها للغات أخرى.

قال :

كنا نسمع الموت ولا نستطيع التدخل.

طوال الليل كنا نسمع السلاح يجزّ لحماً بشرياً، ويطعن بليل أسود.

كان حفيف الموت صمتاً خائفاً، لكنه مسموع.

حشرجات نساء وأطفال هو كل ما بقي من المخيم الذي غادره المقاتلون إلى تونس بقرار دولي...

من حقق مع القوة الدولية التي جاءت لحماية المدنيين العزّل؟ من حاكم أعضاءها حينما تركوا المدنيين للذبح؟

لَم يكن ما رآه الصحفي كابوساً، إذ أن في العالم وحوشاً كاسرة، تدعي الحضارة، والعصرية، وتدعي معرفة الحق من الباطل.

أكتب اليوم كل هذا، وأتفرج على التلفزيون وعيناي تذرفان حزني دموعاً!

كان ثأراً حقيراً من أناس لا قدرة لهم على المواجهة..

وأية قوة هذه التي لا تنقذ طفلاً من الموت؟

هل هؤلاء بشر أم آلات مسيرة تلقم الدولارات فقط، وكيف هكذا قوة تقدر على حل مشكلة من مشاكل العالم ؟

من مفكرتي

رأيت مجزرة صبرا وشاتيلا ضد مدنيين عزّل أغلبهم من النساء والأطفال.

رأيت شهوداً وسمعت عن مجزرة قانا ضد سكان الجنوب اللبناني الذين لجأوا لمؤسسة دولية ظناً منهم أنها تحميهم من عناقيد الغضب الإسرائيلي، لكنهم أبيدوا قصفاً.

رأيت ما حدث في مخيم جنين ونابلس.

رأيت الشهداء بالمئات، ورأيت الجثث التي تداس بالمجنزرات، والبيوت التي تدك وهي مسكونة بأهلها، ورأيت كيف يقتلع شجر الزيتون العريق ويقتل ببرود لتحترق قلوب زارعيه.

رأيت جنوداً أمريكيين في العراق يقفون على الجثث آخذين لهم صوراً تذكارية راكلين هذه الجثث بأرجلهم.

رأيت الحرب ضد العراق، ورأيت أجساد الضحايا المتفحمة في ملجأ العامرية.

رأيت بقايا القطع البشرية التي خلفتها الانفجارات وسمعت أنين المحتضرين.

رأيت المجازر ضد المدنيين في البوسنا والهرسك ورأيت الجبروت الذي يدفن الجثث أحياء ويسرق الأطفال من الأمهات ليبيعهم في السوق السوداء.

رأيت كل ذاك شخصياً، أو أفلاماً حيّة، أو مشاهدات على شاشات التلفزيونات.

رأيت كل هذا، والعالم يصمت.

كم بكيت لضحايا العنف، على يد القوة، فكرهت الأقوياء في العالم.

كيف أستطيع أن أفرق بين الحضارة والهمجية وأنا أرى الإنسان يرى الجرائم الفظيعة في القرن الواحد والعشرين ويسمع عنها، ولا يثور البشر جميعاً على هذا الوضع ويغيروا العالم؟

أفكر بكل هذا فأتذكر قول زعيم الهنود الحمر الخالد "سيلث" بخطابه التاريخي الموجه لزعيم الأمريكان الذين يقتلون الجاموس ويستبدلونه بالسلاح والحديد وقتها قال:

"لو أن الحيوانات انتهت على هذه الأرض لمات الإنسان من وحشة الروح"..

كل هذه الأسئلة التي تحيرني واليوم أقرأ تقريرا يقول:

(إن الولايات المتحدة تحتاج لبدء نظام منسّق يتعلق بالتبرّع وتخزين واستعمال الخلايا المستخرجة من دم الحبل السُرّي Umbilical Cord Blood. ويوصي معهد الطب الأكاديمي الوطني بأن تبدأ وزارة الصحة والخدمات الإنسانية الأميركية سياسة جديدة وطنية حول الحبل السُرّي.

ويعتبر دم الحبل السُرّي منتجاً طبيعياً ومصدراً جيداً للخلايا التي تكون الدم، المسماةHematopoietic Progenitor Cells،

الموجودة أيضاً في نخاع العظم، كما تستعمل لمعالجة سرطان الدم، وورم الغدد الليمفاوية، وفقر الدم والأمراض الأخرى.
في الولايات المتحدة، يموت كل سنة آلاف الناس وهم ينتظرون المتبرع المناسب. ورغم وجود 22 مركزاً لإدارة التبرع بالحبل السُرّي لكن ليس هناك أي تنسيق مركزي بينها حتى اليوم)..
لم يخلف هذا الخبر بداخلي نشوة انتصار الإنسان على الجهل، ولا ترك فرحة فتح آفاق جديدة لقهر المرض ومنح البشر فرص أخرى للعيش، إنما خلف بداخلي رعباً، لثقتي باستعمال هذه الابتكارات الجديدة في الشر وليس الخير فقط، فمثلما انزاح اكتشاف الفريد نوبل الذي فكر بداية باكتشاف أمر هام للتطور البشري، وإذا بالبارود يستعمل لقتل البشر، واستسهال شرارة الحرب فيما بينهم..
يا للرعب،
صار الخبر مخيفا لما أراه من مستقبل العالم.
كانت أفريقيا وبعض دول العالم الفقير تعاني من اختطاف أولادها وأخذهم عبيداً، فهل يا ترى سيأتي اليوم الذي تكون به الحوامل هدفاً للاختطاف والاستفادة من حبالهن السرية عند الولادة وتركهن بمشاكلهن مع الأجنة.
منذ سنوات، تناهبتني أفكار شتى، بسبب الرعب من جبروت القوة، أصبحت نباتية لا أحب أكل اللحم.
قسمت الطبيعة بذهني لأقتنع بتصرفي وكتبت في مفكرتي:

الرباعي المتدرج في الكون بقوة إحساسه وقدراته العقلية يقسم إلى أربعة عناصر أو قوى:

1- الحيوان، والإنسان أعقلها لكنه منها

2- النبات

3- الجماد أو التراب

4- الماء

الحيوان يتغذى على النبات

النبات يتغذى على التربة..

التربة على الماء

الماء لا حس له..

استبعدت النار كعنصر من عناصر الطبيعة في تراتبية الأصناف التي وضعتها، باعتبارها قوة الشر المطلق التي تأكل كل شيء ولَم أفكر بأن الماء الذي وضعته كما لو أنه الأضعف ليكون في آخر ترتيبي الكوني، قادر على إطفائها.

إنها مفارقة مربكة ومحيرة.

إذاً، كل مجموعة لابد وأن تتغذى على مجموعة أدنى منها، لأنها تحدث خللاً في توازن الكون إن تغذت على الأرقى منها.

الإنسان ينتمي إلى مجموعة الحيوان بكل شيء، عدا قدرته على النطق وتطور عقله لكنه لم يخرج من نوعه أبداً، وأن العدوانية التي تصيب البشر وتزداد باستمرار هو تغذيتهم على من هم من مجموعتهم أو صنفهم في نسبة الإحساس، فالإنسان لا يجوز أن

يتغذى على من هو من صنفه إنما على صنف أدنى بالإحساس كما اقتضت الطبيعة.

آمنت بما قيل من أن البقر أصيب بمرض الجنون حين أكل عظام نوعه، مطحونة له مع العلف، فجن..

الإنسان كان في البداية يتغذى على الأعشاب والنباتات، حتى إن جسده غير مؤهل تشريحياً لأكل لحوم الحيوانات البرية، حسب ما تؤكده الأبحاث العلمية ويؤكده كتاب حول نظام تغذية المكروبيوتك الذي أسسه الدكتور الياباني الجنسية جورج أوشاوا، إذ يوضح لنا أن معدة الإنسان غير مؤهلة لهضم اللحوم والدماء كما الحيوانات آكلة اللحوم، وليس لديه أنياب وأظلاف لتقطيع اللحوم.

هل خوف الإنسان كان دافعاً لاكتشاف النار وابتكار آلات القطع الحادة ليذبح الحيوانات، فصار يتغذى على الحيوان أي على نوعه فجن جنونه عبر السنين وزاد الشر؟

هناك نباتات تقتنص الحشرات وتتغذى عليها، لهذا أسميناها بالمتوحشة، لأن الأصل هو كل مجموعة تأكل ممن أدنى منها بالحس، والمتوحش هو الذي يأكل من صنفه، أو من صنف أعلى منه حسب التسلسل الذي وضعته بمفكرتي

أليس كذلك يا ندّي؟

قال لي ندّي:

نعم فالحيوانات التي تأكل البشر نسميها متوحشة، لكننا للأسف لا نسمي أنفسنا بالمتوحشين حين نأكلها، لأننا نعتقد نحن أرقى منها

كوننا الأعقل، والأرض تسمى أرضاً متوحشة حين تبتلع البشر وتمتصهم، وهي الأدنى من صنفهم إحساساً، أي خارجة عن التراتبية أو الأصل.

كنت أناقش نفسي لأجد حجة تقنعني، لكنني لعدم كفاية حججي أتخبط بأفكار لانهائية رغبة في الوصول إلى أسباب الشر المتزايد في العالم.

أناقش نفسي حيث وحدتي، وغربتي، ولكن هل أقتنع بكل ما أحاوله لإطفاء حيرتي والإجابة على زخم الأسئلة المتزاحم في رأسي ؟

أخيراً، أقنعت نفسي وهي أن على الإنسان إعمار الأرض وليس تخريبها أو قتل من عليها، ويتطلب هذا عدم أكل روح وأكل النبات فقط، صحيح أن النبات أيضاً له حس أستطيع أن أسميه روحاً دونية، لكن النبات يكبر وينمو حينما تأخذ منه الثمر ليتجدد عطاؤه فالشجرة ترتاح حينما تعطي حملها، وكلأ الأرض ينمو ويصبح كثّاً حينما يجز، وكذا الخضروات فلها طبيعة العطاء الذي تعيش به ومن خلاله، وتموت وتذبل من دونه.

هكذا بقيت حيرى بأمر وجود الشر وتزايده على هذه الأرض..

الاختطاف

كنت مرتدية بنطالاً عسكرياً وبلوزة صوفية بذات اللون العسكري، وهذا اللون كان بذاك الوقت مودة، ترتديه الشابات في زمن كانت بيروت في حرب وكانت بيروت الغربية معقلاً لكل ما أسميناها حركات التحرر العربية حينها.

نحيفة كنت بوزن ٤٨ كيلو وطولي ١٦٨سم، حينما أمر على محل لقياس ثوب جديد يقترح علي صاحب المحل أن أعمل عارضة أزياء، وكنت أضحك، فالذي جاء بي إلى هنا هو النضال، ولم أفكر يوماً بالحصول على أية فرصة لهكذا عمل، ولَم أفكر بالمال أو الشهرة يوماً..

أنهيت زيارتي لمستشفى الجامعة الأمريكية ذلك اليوم، الوقت كان ربيعاً والمطر كان غزيراً، لم أكن أحمل مظلة، وقفت أنتظر سيارة أجرة لأعود إلى بيتي.

انتظرت كثيراً، ولَم تقف لي سيارة أجرة، أغرقني المطر، شعري الطويل صار يقطر ماءً، وملابسي كلها ابتلت، ألوذ بنفسي من

المطر، أحاول اتقاءه بيدي وحقيبتي، بلا جدوى، فهو موغلٌ بإغراقي، والسماء اليوم أغدقت علينا كل ما شربت من المياه، توقفت أمامي سيارة خاصة يقودها شاب، يجلس بجانبه شاب آخر.

صحت أجرة؟

نعم اصعدي

تقدمتُ أردت الركوب بالخلف، وإذا بالشاب الذي يجلس بصدر السيارة يفتح الباب ليجلس خلف السائق تاركاً لي مكانه، استغربت لولا أنه تمتم :

سأنزل قبلك

قلت مرحباً

عراقية ؟ سألني السائق قبل أن يجيب على تحيتي

كيف عرف ذلك؟ فأنا لم أنطق بكلمة بعد، سوى مرحبا التي يستعملها جميع العرب، وبما أنني أعمل هناك بطريقة سرية، وأحرص على عدم معرفة هويتي الحقيقية فلدي هوية فلسطينية وباسم حركي، أجبت :

لا أنا أردنية

من أي منطقة

من الضفة

لا أدري كيف لم اقل من عمان مثلاً وأنهي الأمر

أردفت قائلة:

أنا من الضفة، لكنني كنت أقيم في الأردن والآن أقيم هنا.

كان عمري تسعة عشر عاماً، وطفلي الذي ولدته في غربتي بظروف حرب ووجع يومي، صار بعمر الثلاثة أشهر، أتركه في الحضانة وأتحرق للعودة إليه بأسرع وقت، حتى إنني أبكي لفراقه أحياناً بساعات العمل.

المطر يشتد، لا أستطيع تمييز الطريق، طال المسير، أحاول أن أعرف هذه الطرق التي نمر بها الآن، ولكنها مجهولة عندي، قلت بقلق:

أين تسير يا سيد أنا أريد الذهاب إلى منطقة الملعب.

قال:

أحاول اختصار الطريق أفضل

سرنا بأزقة ضيقة ليست بها حواجز عسكرية، ندخل ونخرج من طرق وأزقة لا أعرفها وما كنت رأيتها من قبل، طرق ضيقة، تصعد تارة وتهبط أخرى، بناياتها مثل بقية بنايات بيروت، تحمل ندوب الحرب وأوزارها المحدقة في كل الجهات.

المطر الغزير كشف حقيقة الشوارع المهملة، والبنايات التي لم تر الصيانة كل سنوات الحرب، ولكن، رغم كل هذه الحرب وبشاعتها، لم يزل في بيروت بعض جمال مشرق من بين هذه البقايا، فترى شرفاتها الملونة بمظلات ضاحكة، تحتضن أصص الورد، بألوانه المبهجة، تتدلى بعضها بزهو، مطلة على الشوارع كمن ينتظر حبيباً، شبابيك مشرعة للشمس تشعرك أن بداخلها حياة مليئة بالأمل.

السيارة تسير بي وأنا أفكر بالطريق ومتى أصل لطفلي. بعد أكثر من عشرين دقيقة ربما، وقفت السيارة أمام صالون حلاقة كتب عليه "حلاقة أكرم"، نزل الشاب الجالس بالخلف ودخل الصالون.

نزل صاحب السيارة وبقيت بمكاني وأنا خائفة بعض الشيء وحذرة مما سيحصل.

فتح السائق باب السيارة، فوجئت إنه يسحبني من يدي بقوة ولَم يترك لي فرصة أخذ حقيبتي التي سقطت داخل السيارة قائلا:

دعيها، لا أحد يأخذها، تعالي لنجفف شعرك كي لا تمرضي..

كبر الخوف بداخلي فكرت بالصراخ، لكنني وجدت أن الشارع فارغ من المارة وكأن المكان منعزل ومهجور، ولا أدري إن كنت في المنطقة الشرقية أم الغربية التي التجأت إليها وأعيش بها الآن.

الحيرة تثير الخوف، والخوف يذهب بالأفكار السليمة.

المشهد أراني صورة طفلي يصرخ، وصورة جثتي بالصحف، رصاص، دم، ارتعبت وقررت أن لا أموت.

تذكرت زميلتي آمال، وهي فلسطينية تعمل معنا في الجبهة، تعرضت قبل أيام لمحاولة اختطاف من قبل سائق أجرة، وقد أشيع بأن هناك من يسرق البشر من الغربية ليبيعهم في الشرقية ويقبض ثمن تصفية الضحية، ولا نعرف كم من الإشاعات تصدر من الأطراف المتصارعة ضد بعضها، أخبرتنا آمال بأنها لولا قنينة العطر الكبيرة التي كانت في حقيبتها، والتي ضربت بها السائق على رأسه وهربت، لكانت الآن في عداد المفقودين الذين لم يعودوا.

بأثرٍ من كل هذا الزخم من الصور المتلاحقة، والإشاعات، والأخبار، يكبر خوفي.

ليتني أحمل زجاجة عطر كبيرة، لكن العطر الذي في حقيبتي كان زجاجة صغيرة ولا تؤدي الغرض.

أمسك السائق بيدي وأدخلني المحل الذي رأيت فيه شابات وشباب مما جعلني أطمئن قليلاً، فاستبعدت فكرة الاختطاف من أجل القتل..

قادني إلى أحد الكراسي، وقفت على رأسي شابة وشاب، جففا شعري وملابسي وصاحب المحل يجلس ناظراً لي بإعجاب وأنا أقول لهم:

أرجوكم هذا يكفي لقد تأخرت لكنه يطمئنني قائلاً:

لا تخافي ستصلين وبالوقت المناسب.

كان شاباً، يرتدي ملابس حديثة، بيده سوار من الذهب، عيناه عسليتان بوجه أبيض، قصير القامة، أنيقاً، شعره مصفف بطريقة مملة..

بعد الانتهاء من ترتيب شعري، عدنا إلى السيارة وكنا وحدنا، ربما أصبحت أكثر اطمئناناً له حينما رأيت المحل والعاملين به، كما أنه أكد لي إنه سيوصلني إلى هدفي.

سألني ما اسمك؟

لا أدري لماذا قلت له:

مها

ربما هو الاسم الأقرب إلى ذاكرتي لأنه اسم أعز صديقة لي، ثم تذكرت هويتي في الحقيبة، وربما أرسلَ أحداً ليفتشها، فاستدركت قائلة:

مها هو اسمي الحقيقي أما في الهوية فهو اسم مستعار، قال لا يعنيني بشيء فأنت جميلة وقريبة للروح

وأضاف متسائلاً:

هل عرفت اسمي؟

نعم أكرم أليس هو اسم المحل

نعم حبيبتي

استغربت أنه يناديني حبيبتي، فاستنكرتها قائلةً:

أنا متزوجة وأم أرجوك لا تناديني حبيبتي

أنت صغيرة ولا أصدق أنك أم، وجسدك رشيق لا يمكن أن تكوني أمّا كم هو عمرك

١٩عاماً

لكنك تبدين في سن أصغر من ذلك وكأنك في السادسة عشر ولا يبدو عليك الأمومة

لكنها الحقيقة

أحببتك، ففي روحك شيء ما لا أستطيع تحديده لكنه سحرني..

أصمتُ بحيرتي بعد أن طار اطمئناني، وولد شعور جديد من الخوف والقلق..

صرت انتبه للشارع، لعلّ هناك من ينقذني، لعل السيارة تمر قرب مركز شرطة أو حاجز لمقاتلين فلسطينيين أو سوريين أو أي حاجز عدا الكتائب حيث العداء الطائفي كان على أشده.

أنا الآن بموقف لا أحسد عليه، رغم أنني لا أؤمن بالفوارق بين البشر على أساس ديني أو مذهبي، ولا أعادي أحداً على أساس الانتماء، لكنني وجدت نفسي بهذا المكان المتصارع بعد مطاردة الموت لي في وطني، والحرب الطائفية فرضت علينا فرضاً.

السيارة سارت بطرقات غريبة لا حواجز لمقاتلين فيها، والمنطقة جبلية يعني أنها المنطقة الشرقية، وهذا زمن الحرب و بيروت الآن قسمان متناحران، شرقية وغربية.

الخوف يزداد كلما جهلت الشوارع التي نمر بها، المطر ينهمر كالطوفان.

صار أكرم يغازلني:

يسلم هذا الجمال والطول الغزلاني

أحاول أن أتوازن ولا أغضب.

أنا الآن مخطوفة، كيف أجعل خاطفي لا يسلمني للقتل، أو للأسر، أو لأي خطر يدور في رأسه ليقبض الثمن؟

فكرتُ ملياً، وقلت ما علي الآن سوى استعمال عقلي كامرأة، سألته:

هل تنتمي لأحد الأحزاب؟

لكنه لم يجب عن سؤالي تحديداً إنما قال :

هنا في بيروت ومنذ عام 1975 صار الشباب يقلدون كل شيء جديد، فحينما صارت موضة الكلاشنكوف، صرنا جميعاً نملك كلاشنكوفا، ثم جاءت مودة المسدس، فاشترينا مسدسات، والآن الموضة بالعكس وهي أن تتبع الملابس الحلوة، وتضع بلاك ذهب في معصمك، وها أنا كما ترين، تركت الأحزاب وقلت أعيش وأستمتع بحياتي.

لم يقل لي لأي حزب كان ينتمي سابقاً مما زاد خوفي.

شعرت– وأنا الشاكة– أنه أيضاً يريد التمويه علي وطمأنتي لتنفيذ ما يدور برأسه.

يعود ويسألني ما هو السر في جمالك ؟ فأقول له لا أدري

هناك شي ما في روحك لا أستطيع الإمساك به حدثيني عنك

قلت أنا قلقة من أجل طفلي، والآن لا أستطيع أن أفكر في أي شيء سواه. أرجوك أوصلني إلى هدفي فيرد:

سيحصل صدقيني لا تخافي.

المطر أغرق الطرقات وعمل بحيرات في شوارع مدينة مرت عليها الحروب الأهلية وغير الأهلية لسنوات، حتى شوهت الكثير من معالمها الجميلة، حفرت في قلبها، غرست بها بشاعتها بدل الجمال، فتركت وهداتٍ في شوارعها يجدها المطر فرصة لتكوين بحيرات صغيرة تتناثر هنا وهناك،

حاولت السيارة اجتياز أحدها ولم تستطع، فانطفأت.

يا الله! انطفأت السيارة وسط بحيرة صغيرة في قلب الشارع..

توقفت السيارة في مكان لا أعرف هل هو الشرقية أم الغربية، لكن الدلائل تشير إلى أنها الشرقية مما زاد هلعي.
صرت بحالة يرثى لها، الخوف أصبح مسيطراً وقوياً، محاولاتي لستر خوفي باءت بالفشل صرت الهج بقول:
أرجوك أكرم أن تصلح السيارة، أو تطلب لي تاكسي أو أي شيء لأصل إلى بيتي وطفلي الذي ينتظرني بالحضانة.
لكن أكرم بارد الأعصاب غير آبه، بل أراه مطمئناً.
صار يريد أن ينهي الوقت بالغناء حتى تعود السيارة تعمل، أين أَجِد تاكسي هنا؟
صار يطلب مني أن أغني معه وأنا في تلك الحالة.
فكرت مع نفسي وقلت لا بد لي من مسايرته وعدم إغضابه، صار يغني ويؤكد لي كم كنت أتمنى شابة مثلك لأرتبط بها ويضيف:
مها، إنني أحببتك حقاً، ثم يؤكد لا تقلقي ستصلين صدقيني..
بت أفكر بماذا أقول لو تأخرت أكثر وكيف سأفعل ؟
سيقلقون علي، والبلاد في حالة حرب تصمت أياماً، وتشب أياماً أخرى.
لا سلم بين الغربية والشرقية، إنما شبه هدنة تنتهك آلاف المرات، فبين ليلة وأخرى نسمع اشتباكاً هنا وقصفاً هناك، مواجهات وقنابل واختطافات.
هل أننا نسير في طريقنا إلى المنطقة الشرقية، كيف سأنتهي من هذه الورطة ؟.

تظاهرت أنني أنا أيضاً أعجبت به، وحتماً سألتقيه، فأعطاني كارت عليه تلفونه وعنوان محله.

أوعدته أنني سألتقيه مرة أخرى، لكن الآن علي أن أعود سريعاً، أقنعته بذلك ورجوته أن يوصلني، بحيث وثق من أنني سألتقيه يوماً.

ما إن قلت ذلك إلا والسيارة اشتغلت.

هل كان أكرم كاذباً وافتعل أمر انطفاء السيارة؟.

لا أدري

المهم إنه عاد بي، أوصلني، لم أدله على مكان الحضانة بالضبط، أنما طلبت منه أن يوقف السيارة في الشارع الخلفي لها، كي لا يعرف طريقي الذي أرتاده يومياً.

نزلت من السيارة، وهو يقول إلى اللقاء حبيبتي مها.

شعرت أنني ولدت من جديد.

يااااه ما أثقل ذلك اليوم وما أرعبه.

أومأت له بالوداع، وكان كله ثقة بأنني أعجبت به.

أول ما ذهبت إلى الحضانة لاستلام طفلي، مزقت كارت أكرم وأنا بالمصعد، جعلته مزقاً صغيرة جداً، رميتها بقرف بالفراغ بين الحائط وباب المصعد.

وحين عدت للمنزل، كنت أشعر أن شيئاً منه علق بي وسيراه الآخرون، فأخذت حماماً طويلاً.

بقيت واجمة، صامتة طوال اليوم، لم أشته الطعام لأيام، أفكر بتلك الحادثة التي هزتني خوفاً، ولَم أخبر بها أحداً..

بعد سنوات، قرأت في إحدى الصحف اللبنانية، مقتل أكرم الحلاق من قبل مجموعة مسلحين مجهولين، وقد حددت الصحيفة عنوان المحل كما عرفته بالضبط..

من مفكرتي

بعد ذلك اليوم، صرت أتقصّد شراء قنينة عطر كبيرة، لتكون سلاحاً لي أدافع بها عن نفسي وقت الشدة.
يا ترى هل أستطيع استعمالها كسلاح حين مداهمة الخطر لي؟ لا أدري، فلم تمر علي هكذا حالة أبداً، لكن هذه العادة استمرت عندي طوال حياتي، فحتى الآن، وفي هولندا الآمنة وأنا أحمل قنينة عطر كبيرة في حقيبتي اليدوية..

مجزرة الفاكهاني

في خضم أحداث بيروت وحربها الأهلية، وحربها مع إسرائيل، وبرغم أن هذه المدينة تعيش الموت يومياً، لكن الموت لم يخطر ببالي أبداً، ولَم أتوقعه لنفسي مطلقاً.

كما لو أن حواسي تخدرت أو تبلدت، أو أنني كنت مأخوذة بزحمة حياة جديدة.

حياة بالنسبة إلي لا رقيب سياسي علي فيها، ولا رقيب اجتماعي يخنقني، فلا تعرفني المدينة، ولا يعرفني الجيران، ولا يعرفني من أتعامل معهم في الشارع.

لكن فكرة أن تبتدئ من جديد لتكون معروفاً، تستحوذ عليك أحياناً، فأن تكن معروفاً، يعني أن هناك من يحميك ساعة الشدة.

إن تكن معروفاً، يعني أن هناك من يحترم وجودك كغريب إذا ما عرف سبب غربتك.

وإن تكن معروفاً، حتما ستُعامل بما عرف عنك من حسن قيم.

كانت علاقاتنا مقتصرة على من نعمل معهم بالحزب، وعلى من نعمل معهم في مكاتب الجبهة الديمقراطية والفصائل الأخرى.
كنت أعمل بتفانٍ أكثر مما هو مطلوب مني بعملي، من اهتمام بالجرحى وعوائل الشهداء الذين نزورهم.
أما السجناء فلم أعرف منهم إلا القليل في سجن الكفاح المسلح، وأتذكر أحدهم وكان لبنانياً يعمل بالجبهة الديمقراطية اسمه عماد قاسم سعادة، وسبب سجنه هو حادث سير أدى بحياة رجل من فصيل فلسطيني آخر.
الغريب هو أنني برغم رعبي من صوت رصاصة أو قذيفة، وبرغم الهلع الذي يجعلني أفقد قدرتي على التفكير لسماع صوت طائرة الفانتوم الإسرائيلي، كنت أشعر أنني ممنوعة على الموت، واثقة من أنني بعيدة عنه رغم قربه مني، ورغم عيشي في وسطه.
كنت أشعر بأنني لن أموت بلبنان بل بمكان آخر وبموت آخر أجهله، والظاهر أن العقل الباطن عمل على ذلك فلم أمت في كل الأحداث التي كان يجب أن أقتل بها في بيروت، وبكثير من الأحداث كنت والموت قاب قوسين أو أدنى، وكنت في كل مرة أخرج منه بأعجوبة، فقبل قصف بناية رحمة في منطقة الفاكهاني بعشر دقائق لا غير، كنت قد خرجت من المكتب الذي أعمل به، وسلمت من الموت.

أتذكر الآن بحزن الشهيد العراقي الصحفي غازي فيصل، الذي لم يترك القصف لجسده وجوداً، حيث الصواريخ استهدفت الطابق الرابع وكانت قيادة الجبهة الديمقراطية بهذا الطابق ومكتبنا يقابل مكتبهم. لم تترك منه الصواريخ قطعة واحدة، لقد رحل ذوبانا بالصواريخ التي دكت المبنى بوحشية.

استشهد غازي فيصل في القصف الإسرائيلي لمنطقة الفاكهاني بيروت يوم 17-7-1981 وكانت مجزرة دموية رهيبة، راح ضحيتها عشرات العوائل ومئات المدنيين الأبرياء.

التهمت الصواريخ جسد الشهيد كلياً..

كان شاباً شيوعياً مثقفاً، هادئ الطبع، وسيم الحضور، دافئ الصوت ينتقي كلماته بغاية الأدب والذوق، يعشق العمل الصحفي.

درس في جيكوسلوفاكيا، ثم أصبح لاجئاً بها، هارباً من موت محتم عبر ملاحقة جلاوزة النظام العراقي الدموي له، إذ لم يقبل على نفسه دعة الحياة الاشتراكية آنذاك، والشعب العراقي يموت في المعتقلات، والمقابر الجماعية.

جاء إلى بيروت بنية استكمال السفر إلى كردستان، حيث فصائل الأنصار تحمل السلاح بوجه الطاغية الذي يبطش بالشعب، ويدمر الوطن بالحروب.

كانت بيروت محطة عابرة بالنسبة للقادمين من الدول الاشتراكية والدول الغربية الأخرى من شباب، لبوا نداء الحزب بالكفاح المسلح، وقدموا زهرات أعمارهم في سبيل المبادئ النبيلة.

عمل غازي فيصل صحفياً في مجلة المقاتل الثوري التي يرأس تحريرها يوسف الصفدي آنذاك، وعمل مؤقتاً بانتظار تسفيره إلى جبهة النضال، وكانت المجلة تشترك مع التوجيه المعنوي بمكتب واحد.

ترك غازي فيصل طفلته الوحيدة وكانت بعمر عام ونصف مع أمها الجيكية ولكنه كان يتواصل معهم تلفونياً..

كانت المجلة تابعة للقوات المسلحة، وكنا نتحاور ونكتب في تلك الجريدة عن شؤون المقاتلين، وتنشر المجلة آراء ومواقف القادة، وقصائد، وكلمات الأدباء المنضوين تحت لواء الجبهة.

ثلاثة أسابيع فقط حين جاء غازي فيصل وبدأ العمل معنا في الطابق الرابع من بناية رحمة وكان أيضاً يسكن في الطابق السادس من ذات البناية.

في غالب الأيام يكون في مكتبنا سبعة موظفين، أما أنا فقليل ما أبقى فيه حيث أذهب لزيارة الجرحى في المستشفيات، أو أزور عوائل الشهداء أو غيرها من المهام الإنسانية التي أنيطت بي.

يوم 17-7-1981 المشؤوم، حيث دخلت المكتب، كان غازي فيصل فرحاً جداً، بادرني بالسلام وهو يبشرني بصدور العدد الجديد من المجلة، وكان سعيداً حيث سيكون مقاله بعنوان" نيكاراغوا الثورة" مقالاً رئيساً فيها، وبأن هناك من نزل الآن إلى المطبعة لجلب نسخ العدد.

كان فرحه طفولياً، حيث أحب أن يكون عمله صحفياً، يناضل من خلاله بالكلمة من دون حمل السلاح، فالكتابة والصحافة كانت الأقرب إلى روحه حتى اعتقدت أنها اختطفته ليبقى في بيروت أطول مما كان قد قرر.

ذلك اليوم أردت البقاء في المكتب لكتابة تقارير مطالبة بها في عملي، لولا أن تلفوناً جاءني من جريحين يريدان سلفة قبل موعد الراتب لحاجتهما الماسة لذلك، فاضطررت للاتصال بمكتب الذاتية وبمسؤولها سهيل الناطور الذي كان حريصاً على مال الثورة، ولا يتساهل بمنح السلف للمقاتلين..

الغريب الذي حصل ذلك اليوم هو أنني حين اتصلت بسهيل الناطور، أجابني فوراً على غير عادته بقبوله منح المقاتلين السلف التي طالبته بها ولم يناقشني أبداً

هبطت أدراج المبنى، وقبل أن أصل الشارع العام وإذا بسيارة الجبهة يشرأب من نافذتها رأس الرفيق أبو عماد قائلاً:

رفيقة إلى أين تريدين الذهاب؟

إلى شاتيلا

نحن ذاهبون إلى صبرا، تستطيعين المجيء معنا ومن هناك تتمشين إلى شاتيلا، تفضلي.

حسنا، صعدت إلى السيارة التي أوصلتني بخمس دقائق إلى صبرا، نزلت من السيارة، كان هناك محلات ومطاعم وسوق شعبي يعج بالناس من فلسطينيين ولبنانيين جنوبيين نازحين إلى بيروت، وعرب

من كل الجنسيات، وكان هذا الخليط المتجانس بالأسواق والمستشفيات، غير متجانس على الحواجز وجبهات الحرب، شعب غير منصهر ببوتقة واحدة أبداً بل بفصائل لابد وان يختلف أحدها عن الآخر ببعض المواقف والأفكار. وبرغم اختلاف مواقفهم ولهجاتهم، لكنهم جميعاً من العرب، يحملون شعاع الشمس، وأحزان الأرض، وشموخ عراقة يترنح. بعد أقل من دقيقة من هبوطي من السيارة وذهابها، وإذا بالدنيا تنقلب رأساً على عقب، طائرات الفانتوم، حلقت فوق رؤوسنا بكل حجمها الكبير، أتذكر الخوف الذي أصابني وأنا أرفع رأسي لأرى الفانتوم وأسمع صوتها المروع، وإذا بكف رجل تسحبني إلى داخل مقهى كله رجال فلسطينون، قال وهو يسحبني :

عمو لا تخافي. كان رجلاً كبيراً، رأى هلعي فأشفق علي لأكون تحت سقف المقهى على الأقل وليس تحت نظر الطائرات مباشرة. كنت ارتدي بنطال جينز وقميصاً أبيض بأكمام قصيرة، وقد امتص الخوف لون وجهي سريعاً، كان المقهى مليئا بالفلسطينيين غير الخائفين كما بدا لي، لكنني وحدي المرتعدة الفرائص، يشفق علي الرجل الكبير الذي يبدو أنه صاحب المقهى فيفتح زجاجة كولا، يقدمها لي قائلاً:

عمو اشربي لتهدأي ولا تخافي، كلنا معك، أمتنّ لنظراته الحانية، حاولت طرد هلعي وشكره بالإشارات، كنت ساكتة، ذاهلة، إلا من نظرات غير واضحة المعاني، بعض الفلسطينيين يخرج من باب المقهى فيصرخ انظروا الطيران الإسرائيلي أحرق الفاكهاني، يتصاعد

الدخان والنار في دائرة المنطقة التي احتوت المقاومة الفلسطينية في بيروت، جولات الطائرات مستمرة بين دقيقة وأخرى حيث صيحات الفانتوم تصك الآذان، كأنها نذير بالموت، تسلل الرجال من المقهى، التفت فأجد أن المقهى قد فرغت تقريباً، يسألني الرجل الكبير

عمو إلى أين أنت تريدين الذهاب؟ أين بيتكم؟ أشعر به خجِلاً ومربكاً، فهو يريد إغلاق المقهى والالتحاق بأسرته، فيضيف:

عمو أريد أن أغلق المقهى وأذهب..

شكرًا لك سأذهب أنا أيضاً. خرجت من المقهى لا أدري إلى أين راكضة والنَّاس كلهم يركضون، الضجيج في السوق اختفى، وسيطر عليه ضجيج الفانتوم ومضادات الطائرات، فلا سوق بعد غير مقاتلين مسلحين، ركضت بهلعي، وإذا بطائرة فانتوم فوق رأسي مباشرة وكأنها تخرق أذني، أدخلني الخوف زقاقاً، به بيوت بسيطة جداً في المخيم، لم يكن الذي دخلته بيتاً إنما سمي بالبيت تجاوزاً، بابه كان مشرعاً، بداخله ثلاث نساء محجبات خائفات يقرأن سوراً من القرآن، واحدة منهن تسبح بمسبحة، وهي كبيرتهن، وفي حضن إحداهن جلست طفلة باكية، لا أدري كيف دلفت إلى داخل البيت، تسللت كريح من شق نافذة، هكذا من دون استئذان، والنسوة رأين خوفي، سلمت وجلست معهن، سألنني من أين أنت؟

فلسطينية قلت. وما إن عرفن بذلك تغيرت نظراتهن واستثقلنني، عرفت من خلال لهجتهن بأنهن من الجنوب اللبناني، هربن خوفاً

من القصف الإسرائيلي الذي لحق بهن إلى بيروت، لقد خفن مني، وكأن الطيران الإسرائيلي، سيستدل علي في بيتهن هذا ويستهدفه لأنني أحمل هوية فلسطينية. عذرت بساطتهن وخوفهن مني أنا الخائفة حد الموت، صرن يرمقنني بنظرات عدم الرضى، تسبح كبيرتهن مرددة آيات قرآنية تذكرني بالموت وغضب الإله، مما يزيد هلعي ويجعل صورة الموت هي الأقرب، ودعتهن خارجة بسرعة، أركض بلا هدف، والرعب معي، وما إن خرجت إلى الشارع فإذا بسرب آخر من الفانتوم يحوم فوق رأسي، كنت كالحمامة المذبوحة، أرفرف، لا أدري إلى أين أتجه، فارغة من الأفكار، ومن العقل، أشعر بضعفي على أشده، حيث الخوف هو الشعور الوحيد الذي يستبد بي ويستفرد، ولا أعرف له رداً، آه، كم كنت خائفة، وكم كنت عاجزة عن فعل أي شيء، الطيار رآني حتما ولكنه لم يقصفني، ليس عطفاً علي، إنما عنده خارطة المناطق المراد قصفها، والأشخاص المستهدفون، أما أنا فماذا سيستفيد لو قصفني بشارع عام. كمن يكذب على نفسه، صرت أركض وكأنني أعرف اتجاهي، ولكن الحقيقة هو أنني أركض على غير هدى حتى استوقفني مقاتل قائلاً:

هنا ملجأ ادخلي. دلفت إلى باب البناية وهبطت السلم نحو القبو، شعرت أنني نزلت إلى العالم السفلي الذي قرأته في الملحمة السومرية، كل درجة أنزلها يقل نبضي الخائف، لكن عشتار كان عليها أن تخلع قطع الحليّ في كل درجة تنزلها نحو العالم السفلي،

قطعة قطعة، أما أنا فكنت أحمل في كل درجة من هذا السلم قلقاً آخر، وخوفاً آخر، ومصيراً مبهماً آخر، حتى بلغت آخر السلم وكنت بلا روح، لقد تشيأت واعتبرت نفسي حجارة من أحجار ذلك القبو، وما جعل الوعي يدب بي هو رؤية الأعداد الكبيرة من النساء والأطفال، أغلبهن يندبن أبناءهن بوجع، أو يتضرعن إلى الله أن يعيد أبناءهن بسلام. الحزن والقلق صبغا ذلك المكان بلون كئيب، لكنه نبيل حيث أغلبهن أمهات قلقات موجوعات، فما أعظم قلق الأم وما أنبله. فكرت بكل هذا الشعب الباكي، المتضرع للإله بهذا القبو، شعب من النساء والأطفال من فلسطين ولبنان غالباً، لا ناقة لهم ولا جمل في كل ما يفعله أو يقرره السياسيون، يتعذبون وأنا أرى عذاباتهم الآن بأقرب وأصدق صورها. البكاء والعويل من حولي بدأ يزداد، لولا أن سيارة إسعاف تمر مسرعة معلنة وجوب إخلاء الأقبية، فصواريخ جو أرض صارت تهد البنايات من أعلى طابق حتى القبو ليدفن كل من في الملاجئ، كما حصل في قبو بناية رحمة. بدأت أعداد النساء تغادر القبو، كل عائلة يساعدها أحد من الخارج، وأنا الوحيدة بلا مساعد، خرجت إلى باب القبو فانبرى مقاتل شجاع إلى القول تعالي معي أوصلك إلى أي مكان تريدين، هلعي جعله يطمئنني فيقول:

أنا مسلح لا تخافي. أنظر لبندقيته على كتفه، وأتساءل ماذا تفعل البندقية تحت طائرة الفانتوم المغيرة؟ لكن برغم ذلك فهو أدخل بروحي الشعور بالأمان، ركضت معه مخبرة إياه اتجاه بيتي، ولَم

تمض لحظات على ركضي معه، إلا وأرى سيارة مكتب الحزب الشيوعي العراقي، وأعرف سائقها ومعه السيد فخري بطرس والقلق يكدر وجهه، كان متجهاً إلى المستشفى، باحثاً عن ابنته التي تعمل في المطبعة الكائنة في قبو بناية رحمة، ولَم نكن نعلم أن ابنته العروس العراقية ثائرة قد فقدت وجهها تحت القصف، حيث البناية المستهدفة ذلك اليوم دُكت حتى آخر حجر، وطارت ثائرة بلا وجه صوب المعالي، وكان قبس النور بديلاً عن ذلك الوجه الفتي الجميل. حينما رآني السيد بطرس وأنا أرتعد هلعاً، طلب من السائق أن يوصلني المنزل أولاً، ثم ينقله إلى المستشفى ليبحث عن ابنته، وكم كان موقفه رائعاً. عدت إلى المنزل كمن خرج من القبر، ذاهلة، فاقدة الشعور بوجودي، أو رافضة الوجود كله، ألمس رأسي وقدميّ بين الحين والآخر، لأتأكد من أن الطائرات الإسرائيلية لم تأخذ شيئاً من جسدي بطريقها، كما أخذت أعضاء الناس وأرواحهم برمشة عين، حيث شطبت على عناء وسهر ووجع أمّ كل واحد منهم من تسعة شهور حمل، وسنوات تربية، ليصبح إنساناً، وكياناً مؤثراً في المجتمع. وجدت الجيران يومئون لي من الشرفات المجاورة لشقتي، ويهنئونني بسلامتي بعد أن عجز زوجي في البحث عن جثتي بين الأنقاض، طار صوابه إذ لم يجدني، لا أحد عنده معلومات عن مكان وجودي، حتى بين الأنقاض، فكان في حالة يرثى لها، حيث فُقدت الجثث، وطارت بقايا البشر في ذلك القصف، كما بقر القصف البطون من هول الضغط، وفتح الجحيم على المدنيين الأبرياء

والفقراء من ساكني بناية رحمة الكبيرة ذات الطوابق الست، حتى بلغ عدد الضحايا ذلك اليوم حسب الإحصائيات قرابة ٣٠٠ شهيداً مدنياً بريئاً، للفلسطينيين الحصة الأكبر منهم، كما تضررت البنى التحتية لعدة مناطق من بيروت. في ذلك اليوم لا أدري كيف هيأت الأقدار لكل الموظفين في المكتب خروجاً من المبنى وأنا منهم، إلا غازي فيصل.

كل الموظفين رتب لهم القدر تلك الساعة سبباً أبعد عنهم الموت بشكل عجيب غريب، عدا غازي فيصل، بقي ليتلقى الصواريخ الإسرائيلية بجسده وروحه، أعزلاً، غريباً، وحيداً، حالماً بعالم أجمل.

لم ير العدد الجديد، ولَم يرَ مقالته الأولى فيه.

كان العدد في المطبعة، لكن الصواريخ "جو أرض" قد دكت البناء إلى ما تحت الأرض.

وحيث استشهدت ثائرة فخري بطرس عروساً جميلة فجعت قلوبنا.. استشهد حتى المرضى في سيارات الإسعاف، واستشهد الممرض الفرنسي نيقولا، الشاب الذي ترك وطنه ليلتحق بقضية آمن بعدالتها. قُتل نيقولا الطيب، المبتسم غالباً، رحل بشظايا القصف حينما كان يسعف الجرحى من قصف إسرائيلي مر عليه خمس دقائق، تلاه آخر أخذ معه ذلك الممرض النبيل مع غيره من الأبرياء، رحل غريباً، طيباً، محباً للعدالة.

رحل نيقولا كعلامة للتضامن العظيم بين البشر

فتح القصف بطن شابة فلسطينية حامل، حاولوا إسعافها، لكن قلبها توقف قبل الوصول إلى مشفى غزة ببيروت، بقي قلب الجنين في بطنها نابضاً، فأغدق الطبيب العراقي حسان عاكف عليه الاهتمام ليخرج الجنين حيّاً يرزق.

جاءت بنتاً أسموها فلسطين

رحل غازي فيصل كما جاء خفيفاً، محبوباً، مناضلاً، وحيداً، وبلا جثة.

وضعوا صورته الوسيمة على عمود خشبي كشاخصة تشمخ بلا قبر في مقبرة الشهداء ببيروت، المقبرة التي ازدحمت بالشهداء بعد حادثة الفاكهاني.

غازي فيصل، رغم أنه كان صورة فقط، بلا جثة، لكن حضوره كان طاغياً في المقبرة البيضاء، الحيوية والخضراء تلك، وكأن سكانها أحياء.

أتذكر حينما كنّا في المقبرة، كانت بجانبي شابة فلسطينية نظرت إلى صورة الشهيد وهمست لي بحسرة:

انظري ما أوسم هذا الشهيد يا حسرتي عليه، رجل رائع كأنه ملك في المقبرة..

لست أدري هل بقيت صورة ملك المقبرة الشهيد غازي فيصل حتى الآن تحكي ذلك العطاء، وتلك الجرائم المرعبة البشعة للإسرائيليين الصهاينة؟

سحبوا أطفالاً كثراً من تحت الأنقاض، من كل الجنسيات الملتجئة إلى بيروت الفاتحة ذراعيها للمقهورين والمقموعين والحالمين، منهم من مات، ومنهم من فقد عضواً من جسده، والمفاجأة المؤلمة هي أن ابن شادية التي خرجت بعد فترة من النقاهة عرجاء، إلى شقتها في بناية رحمة، هو أحد الأطفال الذين سحبوهم من تحت الأنقاض، كان مقطوع الساقين.

يا لقدر تلك العائلة وَيَا لذاك الحدس الغريب الذي يصبح حقيقة الآن..

موت آخر، بعام آخر، خرجت منه بأعجوبة أيضاً، حينما كنت أعبر شارع الجامعة العربية بأربع دقائق حيث دوّى الانفجار المروع فيه، وقد أجرى الموت الدماء نهراً ذلك اليوم الذي أوجع روحي حيث استشهدت به صديقتي الفلسطينية مها وزوجها سامي الحاج وتركا طفلتهما لارا وحيدة.

من مفكرتي

تذكرت الآن حينما كنت طفلة في الابتدائية، كان ارتباطي بأبي وأهلي يجعلني لا أصدق أن أحداً منهم سيموت، لا لشيء بل لمجرد أنهم أهلي، وكنت أنظر إلى سميرة حسن– وهي اليتيمة الوحيدة في صفنا– على أنها لا تشبهنا، بل أخاف الاقتراب منها أحياناً، وكأن اليتم مرض معدي، سميرة مصدومة بوفاة والدها المتعلقة به كثيراً، تحدثنا دائماً عن وفاته وكيف مسك يدها وشدَّ عليها ثم مات!

ربما ما أنساني فكرة موتي ببيروت، هو ذلك الشعور بمساحة الحرية التي امتلكتها أول مرة بحياتي، فلأول مرة عملت، وصرت أتحرك وحدي، أستأجر سيارة أجرة وحدي، أذهب إلى المستشفيات لزيارة الجرحى وشحن معنوياتهم بثقة بالنفس وكأنني أكبر منهم، مع أنني كنت أصغرهم جميعاً.

الغريب أنني كنت أشعر وكأنني أعرف كل هؤلاء الجرحى، وكأنني رأيت وجوههم، في حلم، أو طفولة، أو مكان ما، حتى صارت علاقتي بهم أخوية وصداقية بشكل سريع جعلهم يرتاحون إلي ليحدثونني عن أسرارهم وبأكثر من مجرد موجهه معنوية لهم، وبدوري شعرت أنني مسؤولة حتى عن بيجاماتهم وهم في المستشفيات فكنت أجلبها للبيت لأغسلها في حالات نادرة لا يتوفر لهم غسلها في المستشفى سريعاً.

كان زوجي يرفض أن أجلب بيجامات الجرحى، فكنت أفعلها أحياناً من دون علمه، لأنني واثقة من إنسانية الفعل.

صرت أشتري لهم حاجاتهم من السوق، ولن أنسى ذلك اليوم حين أخذت الجرحى بعكازاتهم إلى ملتقى النهرين بسفرة ترفيهية.

أجرحر بعدد من المرضى، مقطوعي الأطراف، واحد على عكازة، وآخر على كرسي متحرك، وآخر بعين واحدة بعد أن طيرت مقلته الشظايا، ومنهم من يحمل كيس إفراغ أمعائه معه بعد عملية إخراج رصاصات من بطنه، وكم قرأت لهم الشعر وشاركتهم بترديد الأغاني الوطنية الفلسطينية التي أحفظها ليبتهجوا.

رأفت

المقاتل رأفت عبد الرازق، الذي لا يُنسى لشجاعته ونبله، كان يحدثني عن أمه، التي لم يرها منذ تسع سنين، حيث هرب من الإسرائيليين الذين طاردوه بسبب انتمائه للثورة.

يومها ما كنت أصدق أن يحرم إنسان من رؤية أمه كل هذه السنوات، فأجد أن رأفت حالة خاصة لا تشبهها حالة أخرى.

كم بكيت حنيناً، حينما يتحدث رأفت عن أمه.

كنت صغيرة بعد ولَم أستشرف المستقبل، ولا أعرف أن غيابي سيطول، ولن أر أمي بعد ذلك أبداً، وتموت من دون سماع صوتها، وبأن الغربة ستصبح عقوداً من الحنين..

يحدثني رأفت عن بيارات رام الله، وعن البرتقال المتساقط على الأرض ورائحته الذكية التي يتنفسها حينما يفتح شباكه في الصباح، عن زقزقة العصافير و جنون الطيور، وصخبها على الأشجار.

عن الأفخاخ التي كان يصطاد بها الحمام، عن جمع الورد ووضعه في صينية حينما يكون هناك عرس ما، حيث تقوم الفتيات بنثره على العروسين مع الزغاريد والرقص.

عن الزيتون، ورائحة الزعتر، والشيح، والطيون، وعن طيور الحسون التي توقظه فجراً.

حتى الآن كلما أسمع أو أردد كلمتي زعتر أو زيتون، أتذكر فلسطين وكل الشهداء الذين أعرفهم والجرحى الذين عرفتهم في بيروت، فيعصرني الحزن لكن حاسة الشم عندي تخرجني من ذلك الشعور وتسرع باستحضار رائحة الحقول التي حدثني المقاتلون عنها لأنتعش برائحة الزعتر.

حدثني رأفت عن قسوة الإسرائيليين معهم ومع أشجارهم ومحاصيلهم التي يتعبون طول السنة من أجلها.

عن أمه الطيبة التي تتمنى أن ترى أولاده، والتي لم يخبرها حقيقة التحاقه بالثورة كي لا تقلق عليه، بل أخبرها أنه ذاهب ليأخذ شهادة أكبر وسيعود، لَم يقل لها أنه ذهب بلا عودة.

كان رأفت يكرر:

إن في لهجتك يا رفيقة إحسان حنين يذكرني بأمي، وإحسان محمود عبد العال كان اسمي الحركي في هوية الجبهة الديمقراطية لتحرير فلسطين.

لم يكن رأفت يريد الموت على فراشه بالمستشفى، يهرب منها بين فترة وأخرى رغم مرضه، يذهب إلى الجنوب اللبناني، حيث كتيبة الدفاع الجوي ورتبته ملازم فيها.

كان يكرر قوله: أريد مواجهة طيران العدو وأن كنت مريضاً، فالموت على الفراش لا يليق بابن رام الله.

رأفت كان متخرجاً في الجامعة، ومثقفاً، وقارئاً لكتب الفلسفة خاصة. كان شاباً خجولاً، لم يلمس بحياته يد فتاة، بل أحبَ، ولَخجله لم يصارح حبيبته بالحب. كان يسرّني بأسراره..

سقط بعض شعره من العلاج الكيمياوي، لكنه أيقن بكلام الطبيب الذي قال له وهو يرفع من معنوياته:

سيعود كل ما سقط من شعرك، وسأوقع لك على عودة كل شعرة مفقودة برأسك.

آخر أيامه سألني قائلاً:

أ تعرفين يا رفيقة ما هو الذي يسعد زائر المريض؟

وقبل أن أجيبه قال:

أن يرى مريضه وقد تعافى، قالها وهو ينظر بابتسامة فرح وتمنّي لمريض بذات الغرفة يلملم أغراضه، منتظراً زوجته لترافقه إلى البيت بعد الشفاء.

كل من كان مريضاً في غرفة رأفت، شفيَ وغادر المشفى، وجاء نزيل غيره، ولَم يتعاف رأفت.

في كل يوم أزور به رأفت، أراه ينقص ويذوي، مثل شمعة، وكم كان شاباً وسيماً، بهيّاً، أسمر، طويل القامة، عسلي العينين، وها هو المرض يأكله ويمتص كل حيويته.

سقط شعر رأس رأفت، شعرة شعرة، شحب وجهه، غارت عيناه، وما زال يقاوم الموت ويهرب من المستشفى بين فترة وأخرى متجهاً صوب الجنوب ليلتحق بكتيبته، ثم يعود إلى المستشفى على نقالة إسعاف وقد أغمي عليه في الطريق، كما حصل آخر مرة ولَم يستطع الوصول إلى الجنوب اللبناني..

حتى جاء ذلك اليوم الذي زرته به، وجدته نائماً، انتظرت بجانبه، ولما لم يستفق أو أسمع له أي نفس، ناديته:

رأفت..

لكنه لم يجب، كررت ندائي ورفعت صوتي أكثر، لكن من دون جدوى..

اقتربت منه محدقة في وجهه لأتأكد من أنفاسه، فلم ألحظ أي نفس..

كنت اعتقدته نائماً، لأن المرض جعله شاحباً كالأموات، لهذا لم أميز نومه من موته.

هرعت للطبيب الذي جاء فوراً ليفحصه ويقول لي البقاء في حياتك.

آه، فجعت برأفت أيما فجيعة.

رحل رأفت الذي يحن إلى رام الله ويتحدث عنها يومياً

رحل وهو لم يلمس يد فتاة بعد، إذ كان مفعماً بأمل النصر والعودة ليرتبط بفتاة من فلسطين، رحل ولَم يقبل يد أمه التي يحن إليها كل لحظة وفي كل هدأة..

رحل رأفت وهو متشوق لمواجهة العدو.

رحل فقيراً، بريئاً، لكنه، كان شامخاً ومنتصراً للمبدأ الذي آمن به، عاشقاً لفلسطين

كان كما النائم المطمئن من الانتصار، وابتسامة بعيدة، شفافة تمنح شحوبه لون الذهب..

رحل منتصراً، وبكل معنى الكلمة، إذ كان واثقاً من عدالة قضيته بقوة..

البحث عن المعرفة

رغم كل انشغالي بهذه الحياة وبطفليّ لكنني كنت مأخوذة بمعرفة الفلسفة والإطلاع عليها، وكنت أحب أن أدخل عالم الفلاسفة وأكتشف أسباب تجاعيدهم ونظراتهم المميزة، وأحب أن أقلد إنسانية الحكماء لأعلو، وفي كل دمعة أذرفها على معاناة الناس في بيروت كنت أشعر بخفتي، وبأن الصعود أصبح قريباً لأكون شفافة كملاك، وخفيفة كفراشة، لهذا كله شعرت بسعادة وبهجة لا تطاق وأنا أؤدي عملي رغم كل ما يتركه من آثار حزن بروحي..

كان راتبي الذي أتقاضاه من الجبهة ندفعه لأجرة الشقة التي نسكنها، وراتب زوجي للمعيشة ودفع حضانة طفلينا، لهذا ما كنت أستطيع أن أشتري الكثير من ضرورات الحياة، وكان الموت المحيط بنا يشغلني عن نفسي، لأرتدي حذاءً مثقوباً، ولن أستطيع الحصول على ملابس كثيرة حتى أن صديقة لي قالت لي يوما مازحة:

ثوبك هذا سنضعه بالمتحف الحربي إذا سقط النظام العراقي وعدنا للوطن، وكنت أبتسم لذلك ولا أهتم، أما الثقب في حذائي فهو غير مرئي للناس، لكن المطر يفضحني ويخرج صوت الماء حين أسير، ناهيك عما يدخل جسدي من البرد.

في الليل الجأ إلى عالمي الذي أتمناه، النوم لم يزل بعيداً، صليل أقدامي الباردة يشجعني على الابتكار ومعالجة الموقف بالعودة إلى يوتوبياي...

أتذكر أنني منذ عمر التاسعة أو العاشرة وضعت حلاً مضحكاً لمشكلة المال في طفولتي وأحلام يقظتي، حيث جعلت نافورة توزع المال على الجميع، كل ما يريدون ويطمعون به من مال، فكيف أعالجه وأنا بعمر العشرين؟ والغريب بالأمر أنني لم أفكر بطمع البشر اذ كنت صغيرة لا أعرف الإجابة لماذا يطمعون وربما حتى الآن يحيرني ويربكني هذا السؤال ولا أقتنع بالإجابات عليه..

بات الأمر معقداً في عالمي المتخيل، فما أسهل توزيع المال على الناس بعدالة قولاً، الفكرة سهلة لكن البشر أعقد من تقبّل تطبيقها..

من مفكرتي

قرأت أن هناك كتاباً مفقوداً لأرسطو، ضاع مع ما ضاع من المحاورات التي كتبها في شبابه ولم يبق منها غير أسمائها وبعض شذرات يقول في بعضها:

"إما أن التفلسف ضروري، ولا بد عندئذ من التفلسف وإما أنه غير ضروري، و لابد أيضاً من التفلسف لا ثبات عدم ضرورته، وفي الحالين ينبغي التفلسف"..

كما يقول "إن الفلسفة تعلو بالإنسان فوق الأرض وفوق الفناء، وتتيح له المشاركة في الخلود والألوهية، بل تجعله أشبه بإله بين بقية مخلوقات "

هل بهذا استطعت الانتصار على نفسي وعلى حب المال؟ وهل استطعت السيطرة على الحزن لأكون جذلى بالحياة رغم عدم تملكي أي شيء من مال، أو سلطة، أو شهرة، أو ما يغري الناس؟

كنت أحاول أن أدخل تحدياً مع نفسي لأنتصر عليها وأصبح مثل أبي الذي ترك المال والإرث ليكون شاعراً، فقيراً، محبوباً برغم كثرة الحاسدين، فالناس للأسف تحسد من ينتصر على نفسه بالقناعة والفقر، إذ يعتبرون انتصاره هذا ضداً لهم، يكشف ضعفهم ودونيتهم، فيحسدون قدرته على تقبل صعوبات الحياة بإيمانه بالقيم....

كانت رغباتي تتأرجح أحياناً بين الرغبة بالدعة، وبين الإحساس بالخفة وعدم التملك.

عشنا في بيروت لاجئين عند لاجئين، وبلا وثائق قانونية، عدا هويات الثورة الفلسطينية، سكنّا بيوتاً فقيرة مفروشة كيفما اتفق، لكن الحرية التي كنت أشعر بها وأنا أنتظر سيارة خدمة حين أذهب لعملي وأتفقد الجرحى، وأقوم بإيصال رواتبهم، ومعرفة معاناتهم، والاهتمام بطلباتهم وكتابة التقارير عن أحوالهم ونفسياتهم، يمتعني

ويشعرني بنقلة نوعية في حياتي رغم الحرب، والموت اليومي، والاشتباكات، والصراعات المخيفة والمفاجئة، فأنا لم أكن أعمل من قبل، ولم أخرج قبل ذلك وحدي وأستقل سيارة أجرة.

في بيروت شعرت أنني انتقلت من الطفولة إلى الشباب، والى الاعتماد على الذات وأصبحت إنساناً حراً يستطيع أن يختار الطريق الذي يذهب إليه بنفسه.

في العشق قيمتان متناقضتان عبودية وعطاء...

هيام تفكر متأملة:

هاتفي صامت والليالي موحشة، نافع لم يعد نافعاً بعد أن عرفته وتزوجته،وعشت معه.

أتذكر كيف كان، فأذهل من معنى الازدواجية عند الرجال الشرقيين..

أتذكر والصدمة تطيح بسلامي، تبعد نومي ولا إجابة عندي على كل أسئلتي أتذكر وأكتب في مفكرتي..

لم يضمر أحدنا الوداع الأخير.

أتذكرك حين وقفت مرة أمام القطار تومئ إلي بيديك مودعاً، أتذكر جميع القبلات الهوائية التي رميتها لي، واضعاً يدك على فمك حتى التهمتني المسافة وغابت صورتك عن عيني..

بعد دقائق وأنا جالسة أفكر، أنظر خارج النافذة حيث تتحرك الأرض أمامي هاربة من عجلات القطار، وكأنه وحش يلتهم كل ما يمر

به، يرن هاتفي فتكون أنت على الطرف الآخر قلقاً علي كالعادة، تسألني إلى أين وصلت؟.

كل شيء كان طبيعياً وعادياً، وعند وصولي، وقبل أن أنتهي من تغيير ملابسي جاءني صوتك عبر الهاتف مرة أخرى مطمئناً عليّ، سهرنا على النت حتى منتصف الليل، بعد ذلك لم يأتك النوم فاتصلت بي، كنت أضع جهاز الهاتف جانب رأسي، سألتني هل ما زلت غير نائمة؟ قلت لك أنا في الفراش متوقعة اتصالك لأسمع الرنين، لا تقلق حبيبي. قلت:

حبيبتي هيام هل تخافين عليَّ لهذا الحد وتفكرين باتصالي؟

كيف لا أخاف عليك وأنت وحيد في هذه الدنيا..

أكتب لك كلمات وأرسلها لك رسائل تلفونية، وكانت تعجبك على ركاكتها، فأنا لست حاذقة بالأدب والأشعار..

وحيد، وحيدان، قلبان خائفان على بعضهما في زحمة دنيا زائفة، قلبان مرتجفان من الزلّات، من سواد الضمائر السائرة في الشوارع، القابعة في البيوت والمكاتب.

قلبان طازجان حياة، أبيضان كجناحي حمامة، غارت منهما قلوب كثيرة، يرفرفان من الأرق، يلوذان بالليل والعتاب، يرتجفان بسرعة، يلهثان من البعد، أتوسد المخدة فأشم فيها بقايا رائحتك الحبيبة.

الآن أنا وحيدة، أقف أمام المرآة، فأراك ورائي تنظر إلي بابتسامتك المشرقة ومحبتك التي تمنحني قبلة سريعة.. أفتح خزانتي، فأجد ملابسك، أشمها، أتأسف لأنني غسلتها في الأسبوع الماضي.

لو كنت أعلم أنها الأخيرة لما فعلت، ولجعلتها قبلة أنفي، ودواء ليالي السهر الموحش.. أفتش عن رسائلك عندي وأعجب من شدة وسرعة السقطة.

كيف تريدني أن أعبر قارة كاملة في خطوة قدم وأنا وحدي..كيف؟

آه، لا أستطيع تغيير تحمّلي، فالأصابع الدافئة حينما تمتد بلذة، تترك أثر الحضارة على الجسد الذي يقتله العنف.

حينما تختطف الذكرى اختطافاً لدفء القلب، ليس كاعتقالها اعتقالاً وإصدار الحكم بشنقها، فالذكرى الجميلة تدعوك لها، أما الذكرى المؤلمة تعتقلك وقد تشنقك بلحظة ما.

ما سببته لي من كدمات ما زالت في روحي رغم زوالها من وجهي.

ما زالت يدك تمسك بشعري وترميني أرضا لتدوس بقدمك على رأسي في الشارع، وبمنتصف الليل حينما كنا عائدين من حفل عيد ميلاد صديق، كنت بين الحياة والموت، ورأيت بعقلي صورة مفزعة لمخي ودمي وهو يتطشر على الرصيف، لولا أنني هربت منك إلى زقاق فرعي لأختبئ، فدخلت حديقة لبيت في ذلك الزقاق، أوصلني خوفي إليها، في البيت أناس لا أعرفهم، جلست على درجات عتبتهم والرعب يأكلني، كنت أفكر ماذا لو كان هناك كلب شرس يحرس هذا المنزل ويقطعني ؟

ماذا لو كان صاحب المنزل رجلاً مجرماً، أو سادياً، أو إرهابياً؟

ماذا أفعل لأنجو بنفسي؟

عدت أنت إلى البيت، بعد ساعة اتصلت بي ترجوني العودة لك.

كنت خائفة من كل شيء، خاصة أنت، كنت أخافك أكثر من المجهول في بلد كل ما فيه رعب وموت واعتداء.

خرجت بنتيجة مفادها أن لا يظن أحد أن من يتسلط ويتجبر يعرف قلبه الحب، فالحب خضوع للحبيب، والتسلط قوة عمياء أبعد ما تكون عّن الحب، لذا لا تنجح المرأة العاشقة في الزواج طويلاً لأنها لا تعرف التسلط والتحكم بإرادة الزوج، بينما تنجح المرأة المتسلطة غالباً لأنها تتحكم بإرادة الزوج فتجعله خاضعاً لها منقاداً لإرادتها، ولكن لا أظن أن طرفاً يعيش مع آخر متسلط يكون سعيداً في قلبه، فهو غالباً ما يكون مغلوباً على أمره مربوطاً بسبب ما كالأطفال مثلاً، أما العاشقة، أو العاشق فهو خاضع ومضحٍ بإرادته، بلا تسلط وسيطرة، ولا يتفق العشق مع السيطرة أبداً..

ما زلت أشعر كل ليلة أنني هاربة إلى الحمّام، أدخله وأقفل بابه علي وأنت تحاول فتحه بسكين لتضربني وتدميني بسبب غيرتك المريضة وشكك القاتل.

ما زال جنونك وخوفي من عصبيتك يؤرقانني.

كنت ترمي كل ما بيدك ساعة غضب، ولن أنسى حينما كان بيني وبين فقدان عين من عينيّ مصادفة أو لحظة حظ، أبعدت عن عيني الآلة الحادة التي رميتني بها.

ما زالت فكرة تجسسك على هاتفي وعنواني الإلكتروني والبحث في صوري القديمة ورسائلي فكرة تُكرهني الحياة.

الأغبياء فقط يظنون أنهم حين يضربون زوجاتهم، يستمر الحب كما كان. أحببتك بجنون، حتى إنني تصورت أن الهيام بك قدري الأبدي، وقلت لعله حدس أبي بهذا الحب جعله يطلق علي اسم هيام.

ظننت أنك توحدت بي كما توحدت بك، ما كنت أنت تحلم بامرأة مثلي، ولم تكن بالنسبة لي قمة الطموح، لكن ظروف العراق المأساوية لم تترك أمامي خيارات كثيرة وأنا من بيت محافظ حد اللعنة، والعمر يمضي وخراب الأخلاق يدمر أرواح النساء، والظروف السياسية تأكل أعمارنا بالخوف، والإحباط، واليأس..

أتذكر شهر العسل، حيث سافرنا زوجين سعيدين، قد مررنا على مدينتين في الشمال، كل مدينة نستأجر فيها غرفة في فندق ولن أنسى كان رقم غرفتنا في أول مدينة هو113، و برغم عدم إيماني بفكرة شؤم الرقم 13 إلا أن إحساساً بالانقباض والفقد تسلل إلى روحي، لكنه ازداد وأصبح أمراً يثير خوفي حينما تكرر ذات الرقم في توقفنا الثاني بفندق آخر وبمدينة أخرى، أتذكر في المرة الثانية أنني انتظرتك بالسيارة حينما دخلت أنت الفندق لتحجز لنا غرفة، عدت ومعك مفتاح تخبئه خلف ظهرك وتسألني:

احزري ما هو رقم غرفتنا؟

من دون تردد شعرت أن الرقم تكرر مرة أخرى فقلت 113

سألتني بدهشة كيف عرفت ذلك؟

أجبت: لو لم يكن كذلك ما سألتني عنه.

قلت وأنت تلتهم وجهي إعجاباً:

كم أحب ذكاءكِ

كنت يومها برغم سعادتي، أشعر بمرارة قادمة كمن يشعر بهبوب ريح بعيدة من أطراف صحراء نائية، أو فتحة جبل أبعد من الخيال.. الغريب أن الشؤم في ذلك الرقم تجسد لتكون هذه آخر سفرة لنا معاً.

أتذكر كيف باغتني بضربة على وجهي بلا سبب، ليلتها بت بالحمام افترشت المناشف حتى الصباح، لتستفيق أنت باكياً، تطلب مني الصفح، والخروج من الحمام، تقبل يدي بعد كل ما أصابني من إهانة، وألم، وعذاب طوال الليل.

كنت أحتمل العذاب وأحاول أن أثبت لك وفائي وحبي لك، لكنك مريض، واستفحل عندك الشك وازدادت الغيرة حتى صرت خطراً على حياتي، هربت منك، لم أعد لأهلي ففضلت البقاء ببيت صديقتي، وهي ابنة رجل معمم كبير، أخلاقه فوق مستوى الشكوك والظنون، حتى ليعتقد الإنسان أنه رجل قادم من عالم الغيب الذي أنجب المقدسات.

هناك واجهتني معضلة أكبر مما توقعت من ذلك الرجل المعمم الذي وجدني في بيته كالدخيلة...

صار الشيخ لا يغادر مجلسي، يغازلني بوقاحة، يعبر لي عن إعجابه وعذابه بحبي، أقول له أنا مثل ابنتك، يقول الحب لا يعرف الأعمار، فهي بيد الله. أقول له:

– أنت شيخ ومعمم، فكيف تُعجبُ بامرأة متحررة ومتبرجة على حدّ قول أصحابكم ؟

– وما دخل هذا بالأمر، أنتِ جميلة وأنا ولعت بك، ثم أن الدين كرم المرأة

– كيف؟

–أليست الجنة تحت أقدام الأمهات ؟ ورفقا بالقوارير قال النبي.

– ألا تعتقد أن ما أعجبك بي أكثر هو صراحتي وقوة شخصيتي وتمردي؟

– دعينا من كل هذا أنا معجب بك وبذكائك ومولع بك جداً

– عجيب ألا يعتبر هذا زنا وأنت رجل دين؟

– لا. أنتِ بالغة، وأنا كذلك، ونحن أحرار

– ومن دون عقد وشهود؟

– من دون أي شيء لمجرد أنك أعجبتِني، فإذا رضيتِ بذلك، لا يكون للعقد ضرورة، ولن يكون علينا جناح.

– إن هذا يا شيخ غير وارد عندي، فأنا أتحدث مع الجميع من دون نوايا كنواياك، ثم لماذا إذاً ترجمون العاشقات، وتقتلوهن، بينما أنتم رجال الدين تبيحون كل المحظورات لأنفسكم؟ وهذه العمامة التي تضعها فوق رأسك؟

ما بها؟!

لماذا لا تخلعها وتكشف الحقيقة

أليست العمامة أجمل علي؟، ثم رفع عمامته فبانت صلعته وكأن وجهه ناقص ولم يكتمل من دون العمامة.

نعم معك حق لم أكن أعتقد أنها ذات فوائد تجميلية أيضا. إنني يا شيخ متمردة عليكم جميعاً.

بين قوله وقولي كان لنا حوار طويل من الحوارات التي لم تنته بعد، حيث القناعة راسخة بالعقل والروح.

يا شيخ أرجوك، أنا مختلفة عنك وأريد أن أعيش من دون قسر، وأمارس ما أحب.

نظر إلي بعينين يقطران شبقاً وقال:

دعينا من كل هذا فعطرك ساحر، وصوتك سلب لبّي..

تعجبتُ، استنكرت، وغضبت.

في هذه الأثناء دخلت ابنته علينا، فما كان منه إلا أن خاطبني بكلمة ابنتي ليغطي على فعلته وغضبي، ويغلق الموضوع..

للأسف إننا محكومون جميعاً بمجاملة الناس، فنحن نعيش معهم على أرض واحدة، أحياناً تكون المجاملة ثقيلة جداً، وغبية، أو هي تندرج ضمن الانتهازية، فالبشر وضعوا لأنفسهم ما أسموه أدب المجاملة ليغطوا على انتهازيتهم، وضعف قدرتهم على الرفض أو خوفهم من ردود الأفعال الحقودة والعدوانية..

أين أجد أرضاً أخرى لا مجاملة مزيفة بها وقد علمنا الفيسبوك مجاملة أخرى أشد وطأة من مجاملات الحياة العامة التي كانت سائدة في المجتمعات؟

من مفكرتي

الحرية حاسة لا تختلف عن بقية الحواس، وعندما يفقدها الإنسان يستعيض عنها بحواس أخرى. كتبت هذا الآن وأنا أتذكر طفولتي..
كانت أمي تكرر على مسامعي قولاً، وتؤكد عليه دائماً:
لا تكوني عنيدة كالخنفساء، فالخنفساء نوجهها لتسير بطريق نريده نحن، لكنها تعاندنا وتتجه للطريق المعاكس..
بقي صوت أمي يرن في أذني، فكرت وأنا طفلة أنه لا بد لي من معرفة تصرفات هذه المخلوقة العنيدة، الخنفساء.
جاء الصيف، كنا أطفالاً نلعب في شوارع مدينتنا الآمنة أمام دور الأهل والأقارب.
كانت الأضواء أيام عاشوراء في شارع لطفي، تقلب الليل نهاراً، إنه الشارع الرئيس في المدينة، الخنافس تملأ الشوارع، ولأني أقرف وأخاف أيضاً من الإمساك بخنفساء، أقنعت ابن خالتي بالإمساك بها وتوجيهها لتسير باتجاه نحدده نحن، أمسكها ابن خالتي وأدار وجهها باتجاه معين، وإذا بالمفاجأة العجيبة، فالخنفساء تتجه بالاتجاه المغاير حالما تفلت من يده.
كررنا الفعل مرات عدة وفي كل مرة تذهلنا الخنفساء بعنادها وعدم قبولها السير في الاتجاه الذي نحدده.
فعلها أطفال آخرون غيرنا، وكانت النتيجة واحدة.

حتى الآن لا أعرف تفسيراً علمياً لهذا، وبقي عندي ولع كبير لمعرفته، مثلما بقي عندي إعجاب بهذه المخلوقة الرافضة لعبودية الإنسان بأبسط أشكالها.

منذ الطفولة كنت أريد اكتشاف ما هو جديد بالحياة، ولم أقتنع بأن أكون مثل سواي.

كان الفقر والعجز عن تغيير الواقع يدعو الناس للبحث عن المجهول، فيشيع في قصص الناس أن هناك من يعثر على حظه، متمثلاً في شخص معين، أو شبح، أو شجرة تحدثه..

الأساطير تأخذ بلبي لمعرفة الحقائق. أسمع من أمي قصصاً كثيرة عن بشرٍ يتجولون ويجوبون بقاع الأرض بحثاً عن حظوظهم. يعبرون جبالاً، وديااناً وبحاراً من أجل هذا الحلم..

تخيلت أنني أستطيع ذلك فقلت لإحدى صديقاتي:

لماذا لا نذهب للبحث عن حظنا؟ أقنعتها بفكرتي.

سرنا باتجاه البساتين، انطلقنا باحثات عن حظوظنا، الفكرة خدرتنا، بل سحرتنا إلى الحد الذي نسينا معه عقاب الأهل بسبب التأخر في العودة للمنزل، بلغنا خارج المدينة ظهراً، قبل ذلك كانت قد انضمت إلينا صديقتان هما وفاء ومها..

كنا نحدق في الأرض، في المجاري، في السياجات، في النخيل، في حدائق البيوت، في النفايات، نرمق السماء بنظرات من يبحث عن مجهول، تتسلق نظراتنا السطوح..علّنا نجد حظنا ونحن لا نعلم أية ملامح محددة لما نبحث عنه، كان من دون جدوى، يئسنا من

البحث، فقد بحثنا حتى في الحفر الآسنة القذرة لكننا لم نجد أية إشارة للحظ كما سمعنا عنه، وحين العودة دخلنا زقاقاً ضيقاً، يختصر علينا طريق العودة لبيوتنا، كان الزقاق شبه مهجور، به بيوت قديمة جداً، تهدم بعضها حتى صار خرائب، كما أشيع أن في الزقاق طنطلاً، والطنطل مخلوق خرافي نسجوا عنه الكثير الكثير من الحكايات والقصص، ولكن لا دليل يثبت وجوده فعلاً، فهو غير موجود إلا برؤوس الخائفين والمصدقين لهذه الخرافة، ولن أستبعد أن أحد محتلي العراق أو قادته الجبارين، في تاريخ ما، قد اخترع هذا الطنطل لنشر الخوف بين الغالبية البسيطة، وتخدير عقولهم للسيطرة عليهم.

كان الزقاق صامتاً، لم يجرأ الصغار اللعب به أو حتى المرور خلاله فأسموه "السكة المسكونة" وأقفلوا عليه أستار الحكايات بهذا الاسم المخيف المسكون بالأشباح، ولو كان الوقت مساءً ما تجرأت أنا وصديقاتي على الاقتراب من هذا الطريق..

المفاجأة أننا رأينا رجلا معلّما، نعرفه جميعنا هو "حمد"، رمى لنا مائة فلس وصاح بنا لنقترب وبوجهه شبق، يكاد ريقه أن يسيل، لم نكن ندرك معنى ذلك، بعد ذلك عرفنا ما يريد، هيئته ونظراته تنم عن شي غير مريح للطفل، كانت المائة فلس تستطيع شراء عشرين قطعة من الشكولاته، صرخت وفاء أهربن بسرعة..

انطلقنا راكضين عائدين إلى الطريق الذي جئنا منه، الخوف يزيد من خفقان قلوبنا وسرعة أقدامنا، حتى بلغنا شارعنا بأمان وابتعدنا عن الخطر.

عدنا نتحدث عن هذا الشخص ولماذا فعل ذلك؟

ما الذي أراده منا ونحن بنات بعمر التسع سنوات؟

لماذا رمى بقطعة النقود إلينا، ولماذا أراد أن يمسك بأية واحدة منا؟

وفاء كانت أكثرنا معرفة برغبته، لأن والدتها أكثر جرأة وصراحة في تربيتها، وكانت تحدثها عن الرجال، فهي قد تزوجت أكثر من مرة ولديها خبرة وجرأة لتشرح لطفلتها عن ضرورة الابتعاد عنهم.

بعد عامٍ سمعنا أن "حمد" خطب إحدى معلماتنا التي نحبها جداً، والجميع بارك الاختيار ووصفوه بأحسن الصفات، إلا نحن الصغيرات اللواتي عرفن دناءته.

لم نتحدث عن حمد شيئاً لأنهم لن يستمعوا لكلام الصغار ثم ما عسانا نقول؟

كانت معلمتنا فرحة بالخطوبة ثم الزواج، وكنا نحن فقط من يتألم من أجلها لأنها تزوجت رجلاً حاول الاعتداء على صغيرات وإغوائهن.

كنا نفهم ما يدور لكن تعبيرنا وصغر سننا لا يؤهلنا لطرح ما نفكر به أو ما يحصل لنا...

الومض والانطفاء..
السبايا

جميع البنات في الغرفة يتوجعن وفي حالة يرثى لها، من الواضح أننا اغتصبنا جميعاً، ولست أنا وحدي من اغتصبت بهذه الطريقة البشعة.

تصرخ شابة منا بأنها ستنتحر.

تكتم الأخرى وجعاً بين فخذيها يبكيها لحظة التبول لكثرة الأشباح التي اعتلتها في غمرة انتهاك جسدها البض.

قهقات المغتصبين الثيران تهدر وتطرق الباب وكأن الباب طبلاً، فأحدسُ أنهم خارج الباب يرقصون على أشلاء أجسادنا المحطمة.

إحدى البنات وجدت قطعة زجاج مكسورة في زاوية الصف الذي نحن به، وبالعتمة أغمدتها في بطنها واستراحت، تدفق الدم حاراً، طرياً، لزجاً، سال وهو يقترب منا كناصح لنا بسفكه من بطوننا،

وتقليد تلك الشقية التي لم تحتمل البقاء تحت نير الوحوش الآتية من زمن الهمجية..

حينما امتد الدم إلى ملابسي نهضت بوجع زاحفة نحو الباب، طرقته صارخة بهم تعالوا لقد ماتت واحدة، بعد دقائق دخل واحد منهم أشعث الشعر، أحمق اللهجة، يؤنبنا صارخاً:

يا فاجرات ألا تتحمّلن؟

الآن صرتنّ شريفات؟ ثم أضاف ساخراً متشفياً:

راحت إلى جهنم.

بحث في زوايا الصف عن قطعة الزجاج أو أي شيء جارح فلم يجد، مضى وكأن شيئاً لم يكن.

كأنه لم ير شابة ترفرف احتضاراً غارقة بالدماء.

أية قسوة عند هؤلاء الأجلاف.

أي دين، أو فكر أودع فيهم كل هذا التوحش والبعد عن الإنسانية!

كنت ممددة قرب الباب منهكة، منذ البارحة لم نأكل شيئاً.

في إحدى زوايا الغرفة كانت هناك قنينة ماء انتهت منذ البارحة، وكنا نقضي حاجتنا في تلك الزاوية ونستعمل ما بجيوبنا من مناديل ورقية كانت عندنا منذ أن كنا في بيوتنا.

أصواتهم تقترب وتبتعد، أسمع الآن أكثر من ثلاثة منهم يتحدثون عن أفعالهم بنا ويتضاحكون..

قال أحدهم متسائلاً من زميله بصوت مسموع:

هل جرب مروان واحدة؟

أعتقد، فقد رأيته يسحل سبيّة من شعرها إلى إحدى الغرف ليلاً فادعيت أنني لم أره.

يضحكون ويضحكون. أسمع صوت قداحة بين دقيقة وأخرى فأعرف أنهم يدخنون ولكن ماذا يدخنون؟ لا اُعلم ولا أعلم سوى أنني شعرت أنهم لم يكونوا مهمومون بقضية، ولم تبدو عليهم أي ردود اُفعال بشرية مثلنا، فلا يقرفهم منظر الدم، ولا يرعبهم الموت ولا الجريمة، كانوا كتماثيل تتحرك خارج حدود العقل، والزمن والمنطق، كل شيء كان يبدو بهم قد تحجّر ولا روح ترتجى منه، بعضهم كان يتحدث لغات غريبة لا أعرفها، أو يتحدث العربية الفصحى الركيكة، يقتربون ويبتعدون، تقترب ضحكاتهم وتمضي، أوجاعنا تزداد دونما الالتفات إلينا اُو حتى الإحساس بأننا من جنس بشري عرفوه يوماً أماً اُو أختاً، أو أية علاقة اعتادها البشر..

أماني
المسافات في الحب

كانت هي الشقراء المخلوط لونها بلون الورد والحياة، تتمتع بأنوثة طاغية وجاذبية تجعل من ينظر إليها لابد وأن ينبهر للحظات بجمالها، لم تكن ملكة جمال إنما لديها ما لا تمتلكه ملكات الجمال، شيء ما يشع في وجهها ويبهر، بريق يترك بمن يراها أثراً ممتعاً كما الشعور بالجنة، كانت أماني من بين جميع البنات قليلة الكلام، شعرت أن لغزها مقفل ولا يفتح إلا بمعجزة.

تنظر أماني إلي لحظات ثم تعود لتلفونها، وكأن لديها واجباً تريد إنهاءه.

لم تخبرني عن عملها ولا قالت شيئاً، بيد أنها تبتسم بين الفينة والأخرى، ولكن، حين بدأت البنات بالحديث عن سيرهن ومشاكلهن التي رمتهن إلى الغربة، نزلت دموع عينيها، غصّت بعبرتها، ولم أجدها إلا راكضة صوب الحمام لتنشج نشيجاً مرّاً بعد فشل محاولاتها

بخنقه ولتبقي سرها بين الروح والعقل، أما أنا حين سمعت نشيجها ازددت إصراراً على معرفة ما يتعسها، لحقت بها إحدى البنات، وبعد دقائق عادت بها هادئة حزينة، قدمن لها الشاي، صارت تستمع إلينا لكن بلا مبالاة إذ القصص ترددت أمامها حتماً عشرات المرات.
بعد وقت من الصمت والفراغ، فتحت أماني صندوقها الأسود، كمن يشرق بجرعة بعد عطش، وكغريق يطفئه الماء ثم يقفز طلباً لجرعة هواء تحييه، هكذا اهتزت أماني للحديث عن حياتها ونحن نستمع.
أنا بنت وحيدة لأهلي، تخرجت من جامعة بغداد حيث درست الأدب العربي، سنوات وأنا أبحث عن عمل بعد التخرج، ولكنني لم أحصل عليه ولَم يكن لدي واسطة أو حزب أو جهة تزكيني، وهكذا بحثت عن عمل هنا في هذا البلد الخليجي فوجدته، عشقت رجلاً عبر الفيسبوك، سحرت به برغم المسافات ما بيننا فهو في قارة أخرى، قارة بعيدة، أعرف الكثير عنه من خلال قصصه القصيرة، فهو كاتب قصة ينشر بالصحف والمجلات.
أعجبت بقصصه كثيراً، ولأنني أحب الأدب وأقرأ الروايات دوماً، وجدت فيه ما كنت أتوق له، وجدته عالماً من العشق الجميل، المفعم بالصدق والنبل، وأنا الرومانسية الحالمة حد الذهول، المولعة بالأدب والثقافة، حتى إن مدرستي في اللغة العربية كانت تقول لي إنك حتماً ستكونين أديبة مشهورة يوماً، ولكنني كسولة لم أهتم ولم أتشجع ولم أتحفز لشيء من هذا، بداية علاقتي به كانت مجرد إعجابات بما ينشر أو أنشر بالفيسبوك، تطورت لحديث حول كتاب معين

بالخاص، أي" بالماسنجر"، بحثت عن كل قصصه القصيرة فقرأت ما وقع تحت يدي منها، ثم صارت بيننا صباحات الخير، ومساءات النور، تشجعت لأطلب منه بقية قصصه من التي لم أحصل عليها، أرسلها لي بأريحية وتهذيب، اكتشفت به الصفات التي أحبها بالرجل، الرقة وخفة الروح، والأدب الجم، والعمق الثقافي والروحي، كان حنوناً ولمست به الصدق، أو أنني توهمت ذلك لحاجتي للحب وللصدق في رجل يسحرني، بات الإعجاب به لا يشبع الروح، فصار حباً، وانتظاراً، وقلقاً، وهكذا باح لي، وبحت له، هو أجمل حبيب بالكون، وأروع هدية لي من السماء، منذ سنوات وحتى الآن نسهر على النت حتى وقت متأخر، لا أدري كيف أحببته، ولماذا شعرت أن كلمة منه تحييني، وغيابه يقلقني، كنت كمن وجد شيئاً ثميناً قد ضاع منه منذ بدء الكون، كان الحب يسحبني نحو كهف الخرافات والأحلام، ويرقى بي إلى قمم الخيال العصية، فأدخل أزقة يشعل حبيبي أضواءها من جمرة قلبه المتقد بالحب والعطاء، وأسافر معه بالوهم بسفائن شفافة من زجاج وعسجد، معه غنيت بزوارق زرقاء تفوح منها رائحة اللذة، تفرد أشرعتها البيض لتشق عرض بحار دافئة لم أسمع عنها من قبل، معه وبالخيال ارتويت، بل خرجت بفلسفة جديدة مفادها، أن الإنسان قادر على دخول الجنة على الأرض إن كان عارفاً بترتيب هذا الخيال وفهمه، واحترامه، والقناعة به، أي الإيمان المطلق به، فالخيال أو ما يسميه البعض بالوهم، أجمل

مليون مرة من الحقيقة، فعلام نذهب نحو الحقيقة المرّة غالباً، مالنا والمرارة التي تفسد العقل والنوم ولون الوجه؟

كنت أعيش ببراءة رغم أنني لم أكن مراهقة لأعشق رجلاً عبر القارات، رجلاً ليس لي، ولم أستطع مجرد لمسه أو تشمم عطره ومعرفة جسده، كما أنني من عائلة محافظة لا تسمح للبنت عمل علاقة مع رجل إلا عن طريق شرعي، فكنت أهرب من كل الشباب الذين يلاحقونني ويحاولون الارتباط معي بعلاقة حب، ولم أمنح فرصة لأحد إنما كنت أراهم ساذجين ولا يستحقون ثقتي ومحبتي.

كانت الإعجابات تأتيني من كل حدب وصوب.

لكنني اخترت الخيال والوهم اللذيذ على الحقيقة الملموسة، واقتنعت حقاً بهذا وشعرت بكل السعادة فحبيبي صار يهتم بي ويمنحني وقتاً أكثر، كان في كل مرة يدخل بها صفحة التواصل الاجتماعي يرمي لي بكلمة أحبك، كنت أستفيق فأجد جملته الجميلة لي كل يوم في الصباح، الله كم كنت أشعر بالسعادة لأنه يتذكرني أول الناس وأول ما يفتح تلفونه في الصباح، كان يمنحني محبته عبر القارات وتصل دافئة، نبيلة، حميمية، أشتاقه، ويشتاقني، وأصرح له بذلك حتى صار كل يوم يوقف سيارته في طريقه أو عودته من العمل ليحدثني بالصوت والصورة ويشعرني بأنني غالية عنده كما كان يردد دائماً في رسائله، كان لا يدخل للخاص إلا معي، وكم وثقت به لأنه يدخل ليحادثني ثم يخرج فصدقت أنه لا يتحدث مع امرأة سواي.

قلن ما شئتن، اسخرن مني لو كنت مجنونة، لكنني على الوعد، ومنذ سنتين وأنا أنتظر اللقاء به، لديه ظروف معينة تتعلق بوثيقة السفر، سيتخطاها لنلتقي، سألتقيه، وأتذوق معه الحب الذي حلمت به، يجب أن التقي حبيبي الملائكي في روحي، ودمي، ووجداني. كانت أماني تتحدث والدموع تطفر من مآقيها بغزارة، وكأنها تخشى الفشل في تحقيق مرادها، وتخاف الموت قبل حصول أي شيء.

من مفكرتي

لقد كان ما رأيته في أماني حباً حقيقياً وليس وهماً، كان حباً يعرّش في روحها ويستبد بها، فهي طوال الوقت تلتصق بتلفونها كأنه حبيبها ذاته، لأنه الوسيلة والطريق الوحيد الموصل له، قد يكون هكذا تعامل وهماً عند بعض الناس، فيتصرفون بهكذا علاقة بلامبالاة بشعور الآخر معتبرينه ليس أكثر من دردشة، يزول تأثيرها بعد انتهائها، ويبدو لي أن الخيال دائماً أجمل من الحقيقة، وأكثر قدرة على إسعاد الإنسان، خاصة عند الرومانسيين، عشاق الجمال والإبداع، وعند الباحثين عن شيء لم يلمسوه بعد، كما القطعة الأدبية والفنية التي لم يتوصلوا إليها، فكل ما لا يراه المرء يصبح عنده هدفاً عظيماً وقد يكون مقدساً، بل يصبح عزيزاً جدا، فهو بقدر ما يموت حزناً في حالة فشله به وخسارته منه، يسعد جداً في حالة تحققه، إذاً هو يشبه الحب العذري الذي يموت فيه العشاق، لأن العاشق يكون محروماً من حبيبه، لكن الفرق هو أن العاشق بالفيسبوك

يتعرف إلى صفات وروح حبيبه، ويقترب منه أكثر من بعض الناس الذين يحتك بهم بالواقع، لذا هو يزداد عشقه له وولعه به، ولكنه لا يلتقيه، فالوجع هنا أكثر عمقاً، والعاشق هنا أكثر شهامة.

كما قد تكون المرأة الجميلة من أتعس الناس، لا لأن العالم اليوم يحارب الجمال فقط، إنما لأنها لا تريد رجلاً يركض وراءها أو يحاول فرض نفسه عليها مهما كانت لديه مواصفات يستحق الالتفات إليها، هي تريد لجمالها أن يختار بنفسه وليفاً مقنعاً لروحها، وإن كان وهماً، أو كان مستحيلاً، من هنا ربما جاء قلة حظ المرأة الجميلة وهنا أتذكر مقولة للكبير جبران خليل جبران حين يقول:

هناك علاقة عشق، بين المرأة الجميلة، والحظ السيئ..

أطلُّ على حانة الروح

تنام العصافير فيها
بيدَ أن الكروم تجف
والربيع بعيييييييد.....
أكتب في ذهني ما سأسطره على الورق من جرائم داعش وأنا أسير من بيتي إلى محطة المدينة مروراً بالجسر المعلق قرب مدرسة لاهاي العليا.
أكمل الجسر لأجلس جانباً في مقهى ومطعم هو سفينة عائمة في البحيرة الملتصقة بقناة من قنوات هولندا التي لا تعد ولا تحصى.
نخلتان كبيرتان تزينان السفينة على الجانبين، قاعدة كل واحدة منهما مزهرية كبيرة تستوعب جذع النخلة التي نصبت تحتها طاولة للزبائن الذين كنت واحدة منهم.
يحزنني مشهد النخلتين جداً ويجرحني، أشعر أن النخلتين اقتلعتا من جذورهما وأرضهما البعيدة مثلي، لتنتصبا هنا للزينة ولا شيء سوى الزينة، جردتا من كل عطاء عرفت به النخلة طوال العام، حرمتا من متعة البذل، مثل أم ثكلى، تلوّح من بعيد لكل أطفال الحي وتبكي.

هكذا كنت أرى النخلتين، كمختطفتين غريبتين خائفتين من كل ما في هذا العالم الغريب حولهما..

أجلس أحياناً في هذا المقهى، تحت إحدى النخلتين الواقفتين وقت الصيف، وكثيراً ما نهضت لأقبّل سعفاتها التي أجلس تحتها، وأشعر بغربتها مرددة بسرّي ومتذكرة بيت شعر يُنسب لعبد الرحمن الداخل حين دخل إسبانيا ورأى نخلة واحدة تنتصب خارج المدينة، بوقت لم تعرف فيه إسبانيا النخيل بعد، حيث رأى تفرّد تلك النخلة الشامخة بأرض غريبة فقال:

لو أنّها عقَلَت لبكتْ

ماءَ الفرات ودمنة الشامِ.

وحينما أمرّ وأرى الطاولة تحت النخلتين محجوزتين، أستمر في السير ولا أدخل المقهى، فالسفينة مطعم أو مقهى صيفي، أما في الشتاء فيكون داخل القاعة الزجاجية المطلة على البحيرة والجسر والجامعة، حيث أعود بعمري للجامعة وأنا أبصر الطالبات والطلاب بضحكهم الطفولي، وعبثهم، وفرحهم بالحياة، فأبتهج برؤيتهم.

تذكرت يوماً، وأنا أحدق في النخلة التي أجلس تحتها، والمنتصبة على مزهرية بلا جذور، تذكرت نخلة " البريم" تلك الشامخة في فناء بيت عمتي، ذات الجذور الضاربة بعمق الأرض السومرية.

وتذكرت كم نسجت أمهاتنا قصصاً عن "خضرة أم الليف "التي تلتهم الصغار إذا تأخروا في الليل ولم يناموا، فآوي إلى الفراش خوفاً وكرهاً، وما كنت أستطيع النوم سريعاً، وقد استمرت هذه العادة طوال

عمري، أفكر، أتخيل، أتمنى، وأغير الوقائع باستعمال كلمة لو، فأفكر لو أن هذا قد حصل بدلاً عن ذاك، لو كان ذلك كذا، لو جاء الحدث كذا، لو كان المكان هناك.

كنتُ أجمّل أحداث الواقع بأجمل منها، وليت الأحداث خيال جميل كما نود..

تحت نخلة البريم تلك – والبريم اسم صنف من أصناف التمور العراقية التي تنوف على الستمائة– كم لعبت أنا وأبناء عمتي تحتها، كنّا نتفيأ بها في الظهيرة.

نقضي وقتاً رائعاً في لعبنا، ننتظر ابن عمتي الأكبر ليرتقيها ويرمي لنا بحباتها الشقراء ذات الطعم العسلي، كانت تعطي بلحاً حلواً أشقر اللون زاهياً، مثل ملكة مغرورة بجمالها المعروض أمام الملأ، الجميع يرفع لها الرأس ليختطف نظرة من عناقيدها اللؤلؤية المتراصة حول عنقها، وكنت أحسبها واحدة من بيت عمتي، بل هي كبيرتهم المانحة بلا حدود، كنت مؤمنة بأنها تفهم، وتشعر، وتحب، وتحزن مثلنا، وكم كنت أحبها.

قالت لنا عمتي:

إن تصرفتم بشكل جيد، وأحببتم بعضكم، سيرسل الله لكم هداياه معلقة على سعفة في هذه النخلة.

هكذا كانت طريقتهم في التربية، فهي أما الترهيب وأما الترغيب، كما يتصرف أي دكتاتور بشعبه.

وكنت – وأنا طفلة– أشكك بقولهم هذا، وأقول لنفسي، بأنني دائماً كنت ودودة مع الأطفال ومتسامحة إلى حد الجبن، وكم كنت أسمع معلمتي تقول لزميلاتي أن يكنّ مثلي نبيهة، نظيفة ومرتبة كباقة ورد، وأسمع جارتنا تقول لابنتها أن تكون مثلي كزهرة الرمان، لكنني لم أر هدية واحدة من الله لي على هذا، رغم تفضيلي الآخرين على نفسي دائماً..

المضحك المبكي أن "عمار" اليافع الساذج الذي كان جاراً لبيت عمتي، صدّق يوماً أن الله أرسل له هدية في كيس معلق على سعفة من سعفات النخلة.

ناداه ابن عمتي الشقي قائلاً :

عمار، تعال لترى ماذا معلق بسعف النخلة، إنها هدية من هدايا الله.

هرع عمّار مصدّقاً، مادّا بجسده النحيل وقدميه إلى الأعلى ليصل إلى الهدية المعلقة بعيداً عن رأسه، وبعد عناء أمسك بالكيس بين أصابعه فإذا بالمفاجأة:

آخ، ما هذا؟ قال عمار بخيبة وانكسار وصمتَ بلا لوم ولا عتب.

ضحك الصغار بإفراط ساخرين منه وكلهم يعرفون ما في الكيس عدا عمار.

لم يكن في الكيس سوى قاذورات.

ضحك جميع الأولاد، بكى عمّار بعد ذلك بمرارة.

الأم المذبوحة

منذ عملت بالجبهة الديمقراطية لتحرير فلسطين عام ١٩٧٩ حتى منتصف عام ١٩٨٢ حيث الاجتياح الإسرائيلي، كان المصور الحزين، الوديع جيفارا واسمه الحقيقي جوزيف، يرافقني بعض الأحيان في جولتي إلى المستشفيات، وإلى مراكز وجود المقهورين كدار العجزة، أو بيوت الشهداء، وذلك بحثاً عن وجه فوتوغرافي يصوره، ليسلط عليه عينهُ، ويكشف تجاعيد وهموم شعبه الفلسطيني بصورة تصل العالم ليصدق مظلوميته، ويتضامن معه.

رافقني إلى دار العجزة بحثاً عن تجاعيد امرأة وصفتها له في زيارتي الأولى. امرأة أرّقني حزنها، فقلت لعل جيفارا يهتم بتصويرها..

جيفارا يحلم بصورة لوجه مميز التجاعيد، وجه يفضح الظلم، ولَم يفكر بجائزة.

كانت العجوز بين النوم واليقظة حينما فاجأناها أنا وجيفارا الذي انشغل بكامرته وهو يتحرك بكل الجهات، ويدور حول السرير الحديدي في ذلك المبني البائس، الذي تفوح منه رائحة الأشياء

العتيقة الممزوجة برائحة الرطوبة والعفن، بتلك الصالة الضاجة بأسرّة النساء العجائز..

تمهلي يا آلة التصوير، فلكل عجوز قصتها مع الوجع، ولكل وجع صورته، الذي أتى بصاحبته إلى هنا.

لم تحمل تجاعيد تلك المرأة صورة تمناها جيفارا، فالحزن الذي غطى وجهها كان أكبر من التقاط الكاميرات له، جيفارا يريد تجاعيداً بها مرونة الضحك، فيها مجال بسيط للفرح والحياة، لكن صاحبتنا لم تحظ بكوة واحدة من فرح يضفي على تجاعيدها قبولاً لدى الصحفي الطموح..

حكت لنا عن قهرها باكية:

كنت أعيش في لبنان مع ابني الفلسطيني.

نحن من فلسطينيي ١٩٤٨ هجرنا تحت قسوة الذبح والرعب الإسرائيلي إلى هنا وعمل ابني في الثورة.

رأيت حينما هربت من فلسطين أجساد جيراني وأطفالهم مقطوعة الرؤوس من قبل الصهاينة، لهذا هرب أهلي وكنت معهم لم أزل شابة، تحسست رقبتي حينما لم أجد برأس جارتي وصديقة صباي رقبة، وكم كان الهلع شديداً، هربنا بحثاً عن الأمان

ابني أجمل شاب يحمل قلباً لا مثيل له

تمسح دموعها وتصف حبهُ لها بوجع، كان ابني تعويضاً لي عن كل شيء، الوطن، الأهل، الزوج الذي استشهد بحرب ١٩٦٧

كنت أقنع نفسي بأنني أملك بابني كل ما يفتقده الناس وكنت أفرح لرؤياه قوياً، وسيماً، شاباً، ذكياً، وطموحاً.

أرسل ابني للدراسة بدولة اشتراكية، نجح ولم يعد إلى لبنان لكنه أخذني معه إلى هناك، رغم كل ما حولي من غربة وطن، ولغة، وناس إلا أن وجود ابني والأمان الذي رأيته، جعلني من أسعد البشر، ولكن، قد تأتي أحداث تضرب بحياتك كالعواصف، فتهدم السقف فوق رأسك وأنت نائم.

وجاء ذلك اليوم حيث مهرجان الشبيبة في برلين، كان ابني فرحاً به حيث أمضى وقتاً طيباً مع المعارف، ووقع هناك بحب شابة جميلة تعرف إليها وكانت آتية من دولة عربية مع وفد بلدها..

طرت من الفرح لأنني أريد أن أرى ابني وهو أعز البشر سعيداً، وأرى أولاده فأكون أسعد..

آه قالت، ثم أمسكت رأسها بين كفيها، وأطلقت آهة قوية أخرى وهي تقول :

لو تعلمون كم أحبه، وكم أتوجع، آه، لو أن الدنيا أخذت مني عينيّ، لكان أهون علي من أن يكرهني ولدي الحبيب.. وتتساءل

لماذا يحصل كل هذا يا الله ؟

هل تركني الزمن وأنا الصاخبة بالانكسارات منذ فلسطين إلى لبنان إلى أوروبا ثم إلى لبنان؟

تنتبه لوجودنا وتقول :

لن أصدع رؤوسكم بقهري ولأقص لكم قصتي التي جاءت بي إلى هنا..

عادت الشابة إلى أهلها لكنها أخذت معها قلب ابني

لم أره مهموماً وقلقاً كما رأيته، واسيته، حدثتها بالتلفون، حاولت أن أكون لهما صديقة وأمّا، بدأت بالمحبة وتمنيت لهما ما أتمناه لنفسي وأكثر.. إنه الأعز

لم أكن أظن أن هناك من يخطط للإيقاع بقلوب البشر من أجل تغيير حياته. كانت تريد بأي ثمن أن تترك بلدها وتتجه لأي بلد أوروبي، فكان ابني الفرصة التي اقتنصتها، ومثلت عليه الدور.

أكلنا الطعم أنا وولدي فتزوجها، أتى بها إلى حيث كنا، بدأت رحلة عذابي وبدأت مؤامرات تلك الشابة علي وأنا لم أسكن معهم، ولا أنا عالة عليهم، حيث كانت الدولة الاشتراكية تعيلني وكنت عملت هناك كممرضة..

تلتفت العجوز إلي قائلة:

مخطئ من يعتقد أن حباً تشوبه مصلحة ما وهدف ما، هو حب صادق وحقيقي..

تذرف دمعة منكسرة من أمومة عظيمة مذبوحة، وما أصعب أن تذبح أمك، ثم تكمل حديثها:

جاء ولدي مع زوجته إلى لبنان ليناضل في صفوف منظمة التحرير، وما كنت أستطيع أن أتركه وأفارقه مهما كان الوضع سيئاً بالنسبة

إلي فتركت وظيفتي كممرضة، وتركت شقتي الصغيرة التي عرفت بها الاستقلال وعدت معه إلى هنا.

بدأت بهذا البلد رحلة عذاب، وأنا في بيتي، لا مفر منها إلا إلى دار العجزة، فالظلم الذي سلطته علي تلك المرأة زوجة ابني جعل الجحيم أهون، مرضت، فقدت عملي، ولَم أستطع دفع أجرة البيت الذي أسكنه وحيدة.

وحيدة في بلد لا يعرفني، كانت الليالي مرّة، كل يوم انتظر أن يطل علي ابني، ولكن من دون جدوى، صرت أنتظر أيام الأعياد علّه يقول لي كل عام وأنت بخير يا أمي. أَجِد له الأعذار تارة، وألومه تارة أخرى، لكن الليالي طويلة جداً، والعذاب أن تكون وحدك.

سنوات الانتظار تطول وأنا أتمنى أن يطول عمري لأنتظره أطول.

أجهز له كلاماً جميلاً، سأقوله حين أراه، لكنه لن يأتي.

أغيّر الكلام كل يوم أو يومين، أعدله، أجمّله، أنحته من كل كلمة لوم، أجعله مجموعة حِكَم ينتفع منها، أضيف له جملاً جديدة، أحذف بعض الكلمات التي قد تزعجه....

وهكذا مرت السنون عليَّ..

ثلاثة أعوام وأنا أنتظر، وأغير كلماتي التي سأقولها له ليفرح ويزورني كل أسبوع، أو كل شهر، أو كل موسم، أو كل عيد، كما يعمل بعض الأبناء..

كانت العجوز تتحدث ودمعي يغرق عيني والوجع يغرق روحي، التفت إلى جيفارا فأجده يرفع نظارته ليمسح دموعاً حجبت عنه الرؤية، وتستمر الأم المذبوحة بسرد وجعها:

ذهبت بنفسي إلى المسؤولين في الثورة، ليدبروا لي سريراً في هذه الغرفة الضاجة بالعجائز، سأقضي هنا بقية عمري، فعندي سرير في هذا القبو مع عائلتي الجديدة– وتلتفت مبتسمة لساكنات الأسرّة الأخرى من العجائز– تملك كل واحدة منا سريراً حديدياً، وثلاث وجبات طعام من الثورة، الله يوفقها، وإلا أصبحت طعاماً للكلاب السائبة..

من مفكرتي

بعد الاجتياح الإسرائيلي لبيروت قصفت الطائرات الإسرائيلية دار العجزة بوحشية وكأن المساكين كبار السن هم أعداء البشرية، أو كأنهم الشر الأكبر الذي لابد وأن يُزال من الوجود، ليرتاح بقية البشر.

تناثرت جثث العجائز من النساء والرجال وبعض المقيمين فيها من الشباب المعاقين في الحروب التي ما انتهت، وحتى الطاقم الصحي فيها كان ضحية ذلك الإجرام الصهيوني، كل شيء دمر بجنون وحقارة، وكل هذه الجرائم لم توخز ضمير العالم أبداً.

كنت أتساءل لماذا هؤلاء العجزة؟ ماذا يريدون منهم، هم ميتون، أو قريباً سيموتون تباعاً! لماذا تستعجل طائرات إسرائيل بجلب الموت

إليهم، ما كنت أعرف الإجابة!، ولكن الآن وأنا بهذا العمر أَجِد فكرة مجنونة لمعت في ذهني ليكبر سؤالي القديم ذاك، هم يقتلون العجزة لأنهم بيت الذاكرة التي تقص قصص القرى والمدن الفلسطينية واللبنانية، وتحكي عن الجروح الفلسطينية، والحزن الفلسطيني..!؟

فريدة

عندما أطلق سامي الرصاصة الوحيدة، حمّلها كل ما به من قهر وحرمان، دوّت الرصاصة، انفجرت، خفق قلبه، أسرع راكضا، صفق الباب وخرج..

هل انتهى كل شيء ؟

هل استراح من عذابات السنين التي ذاقها منذ دخلت هذه المرأة حياتهم وبيتهم؟

ترى هل سيتغير والده بعد مقتلها؟

يسير سامي مسرعاً، مرتبكاً، قلقاً، تائهاً، لا يدري ما يفعل، وما سيحدث، والى أين سيذهب.

يلتهم الطرقات، يصل خارج المدينة، تضيع منه الأفكار كما تضيع ملامح الطريق، يشرد، كأنه ما فكر بحياته قط.

ينسى كل معارفه وأقربائه رغم كثرتهم، تهرب من ذهنه كل الأماكن التي يمكن أن تأويه تلك الساعة التي جاءت لا يدري كيف، والانفجار الذي دوى وما كان ليفكر به إلا لحظة انطلاق الرصاصة، كأن شيئاً بداخله قوياً، حاداً، لاذعاً، دفعه، صرخ به:

اضغط على الزناد وفجّر ما بك من قهر.
يركض من دون وعي، وعلى غير هدى، قادته قدماه إلى مكان ما لم يحدده.
العرق الذي سال على جبينه حتى أدرك عينيه، نبهه أنه سائر على طريق الأرض الزراعية التي ورثها أبوه من جده، والتي لابد وأن يمتلكها هو يوماً ما....
أحس بجفاف ريقه وكأن قطرات العرق التي بللت شفتيه، ندى منعش رغم ملوحتها، رفع يديه ليمسح عينيه بكمه، كان يوماً قائضاً جافاً من أيام صيف جنوب العراق.
سامي شاب في الثامنة عشر عاماً، يتمرد، يثور فينفجر...
الآن تم كل شيء، بعد سنين الألم والحرمان، أفرغ المقهور ما بداخله من الغضب..
كم ليلة نام وشقيقته ودموعهما فوق الوسائد الصغيرة لم تنقطع حتى الصباح.
آه، الإحساس بالقهر، واليتم، والظلم لا يطاق، ولم تكن المشادة الأخيرة بينه وبين زوجة أبيه سوى الشعرة التي قصمت ظهر البعير، فلقد بلغ السيل الزبى وطفح الكيل، فلا التروي ولا التعقل عرفا طريقاً إلى فكره في تلك اللحظة التي لا تقارن بغيرها من اللحظات، تلك اللحظة التي لا يمكن ردها بالكلام والعبارات، ولا بتذكر حكماء الأرض جميعهم، إنها الطوفان الذي لا يمكن تأجيله ولا رده ساعة

انهيار السدود، فقد جاء المد وسقطت كل المحاذير، الصبر أكبر كذبة، والعقل أثقل كلمة يسمعها...

كل الكلمات التي تطالب الإنسان بأن يتقبل الشعور بالظلم غابت، ولم يجدها لحظة كبس الزر ورؤيته الدنيا وقد غشاها ضباب كثيف، كان الضباب حاراً أحسه خرج من عينيه، ومن مكان ما في صدره ورأسه، أو لا يدري بالضبط من أين هو، كل ما يدريه أنه شعر بالاقتراب من النهاية، دوّت بداخله أصوات ضاجة ضاغطة:

اقتلها

أقتلها، إنها النهاية وليكن ما يكن.....

حدث هذا بلحظة بقياس الزمن بالدقائق والساعات، لكنه بأعصاب سامي ودمه وتفكيره، هو الزمن العجيب، بل التحول الذي طفر به مئات السنين، لا يدري هل إلى الوراء أم إلى الأمام، أحس بأن الدنيا لا بد وأن تغيرت، قفزت بانطلاقة هذا الشيء الصلب المرعب، والأرض ربما تحركت هي الأخرى، نعم لقد تحركت مع ذاك الضباب، وأطلقت شرارات أمام عينيه، بل هي دارت دورات سريعة خفيفة غير مرئية عبرت به دهوراً لا يعلمها ولم يسمع عنها من قبل، ترى هل لمح روح أمه مع كل تلك المتغيرات؟

هل فكر أنه يقوم بعمل لابد وأن أحداً ما يقوم به لتستوي موازين الكون، فالقاتل يُقتل...

هاهي المرأة التي تسببت في موت أمهِ في عز شبابها، أمه وديعة التي تركت له شقيقتين، أحدهما في الثالثة من عمرها وهي الآن في

الثامنة، الجريمة التي لم يعترف بها أحد، فلقد ماتت على فراش المرض، أمه تلك النسمة التي جاءت وذهبت نقية، ندية لم تؤذ أحداً حتى عندما جاءت إلى الدنيا تحدثت القابلة الوحيدة في المدينة، إنها لم تر ولادة أسرع وأسهل من تلك الولادة..

يوم جاءت وديعة إلى الدنيا كانت ضاحكة مثل ملاك، وملفوفة بغشاء أبيض هلامي أثار استغراب جميع النساء اللواتي حضرن الولادة من قريبات وجارات، النساء العارفات بهذه الأمور قلن :

لا اله إلا الله.

الذي يخرج من بطن أمه ملفوفاً بكيس له منزلة خاصة عند الله في حياته ومماته.

أعطوها اسم "وديعة"، قيل إن القابلة هي التي أسمتها حينما رأتها محرزة في كيس ومرسلة من الله كالوديعة، لكن عمتها قالت إن والدها أسماها وديعة إذ أودع عنده أحد الأصدقاء الأغنياء صندوقاً من الذهب قبل سفره إلى مكة وذلك يوم أطلت وديعة على الدنيا.

لا ندري أي السببين كان في تسمية وديعة، الطفلة التي انطبق عليها الاسم بشكل مذهل، وكأن بعض الناس عندما يعطون الأسماء لأبنائهم يحددون لهم بمعانيها سلوكهم، ومستقبلهم، وربما مصائرهم، كوديعة التي جاءت وذهبت بسرعة وكما ترد الودائع.

وديعة التي تميزت بكل سني حياتها بالوداعة والهدوء، مشرقة دائماً بابتسامة وادعة، تحب الجميع كمتصوفة تعطي بلا مقابل، وكنبي تفكر بالفقراء وتبكي...

البريق المتلألئ في عينيها يزداد يوماً بعد آخر، لقد نضجت وديعة ولم تر الشارع إلا من شرفة المنزل المطلة عليه، حيث لم يكن في تلك الأعوام نساء شابات يسرن بالشوارع، عدا القابلة والندابات والعجائز، فالشابات يقرن في بيوتهن إلى يوم الزفاف أو الموت...

أضافت فريدة التي تسرد لي قصة جدتها وأبيها:

كانت جدتي وديعة قد ولدت ثلاثة أطفال، أبي سامي كان أكبرهم، له أختان وقد كانت حياتهم تسير بشكل طيب وهادئ مع زوج من عائلة غنية مقتدرة، حتى تزوج جدي من ابنة شريكه الثري، انقلبت الحياة في ذلك البيت الوادع، وفارقت جدتي الحياة في أثناء الولادة الأخيرة لسبب لا يعرفونه، قيل أن شيئاً ما خطأ حدث لها لا يعرفه إلا الله، لكن سامي حينما غدا في السادسة عشر لم يقتنع بأن أمه ماتت بشكل طبيعي، وكان يشك بأن زوجة أبيه دبرت لها موتاً لا يترك أثراً.

ولهذا حاول أبي سامي قتل زوجة أبيه بعد أن جارت على أخواته وجعلتهما خادمتين لها ولأبنائها، لقد استفز الظلم روح أبي.

لم تمت زوجة أبيه، وجاءت الرصاصة بجانبها ولَم تمسّها، لكنها أنهت علاقة أبي بأبيه وبالعائلة الثرية.

خرج أبي من بيت عائلته الكبيرة، تاركاً كل شيء، رافضاً حياتهم، متخذاً درب الفقراء، أخذ عمتي الصغرى معه، ولَم يطالب أهله بأي فلس من الإرث الكبير، فكنا نحن فقراء، وأعمامي أغنياء.

هذا ما جاء بي إلى هنا، أعمل بشهادتي كمهندسة، وكما تعلمين أن هذه الدولة الخليجية تدفع أجوراً مجزية..

هيام

عندما أسافر وأكون في المطار أجدني امرأة أخرى، أسير بثقة في مسارات المطارات الطويلة، الكل ينظر لقامتي ورشاقتي، عيون الإعجاب تلقي علي بطاقتها المغيرة للأحوال، فأشعر أنني إحدى ممثلات السينما، وها أنا كأنني في دور ممثلة مسافرة في مهمة عظيمة.

أسير بخطى لها رنة مبجلة، أعطي فهماً للجميع على أنني غير مكترثة لهم، ولا يشغلني غير اقتناص فكرة جديدة من هذه الحياة التي تركض بالناس صوب الطائرات وكأنهم يتعجلون قدرهم نحو السماء..

أدخل مطعماً أو باراً، أول ما أسال عنه لأنسى قهري هو كأس ويسكي، آخذ كأساً أو اثنين، ألحقه بهوت جوكليت..

لا أعلم كيف أجدني بالمطارات، أتحدث الانكليزية بطلاقة وها أنا أطلب هوت جوكليت بطريقة لا تختلف عن لهجة أهل لندن، كيف

يحصل ذلك لا أدري، فللمطارات سحرٌ كسحر الشرق الذي خمد منذ أن اغتصبتنا إسرائيل.

أحمل قناني المياه المعدنية طوال وقت انتظار الطائرة، أشرب منها كثيراً فهو وقت مناسب لتنظيف جسدي من السموم، أشعر أن الماء يخرج من مكان ما في عيوني لكثرة ما أشربه.

في المطارات فقط أشعر أن العالم مكتظ جداً، وأن هناك من البشر ما لا يحصى، ومن الأشكال ما لا تعد.

لست أنا فقط من يأخذني سحر المطارات، فالناس جميعا أراهم هنا في استعراض للأجساد والأشكال.

مقابل الكرسي الذي أحتله، يجلس شاب وسيم يقترب من فتاته حد وضعه فمه في أذنها من دون كلام، أراه يريد الإثارة لا غيرها، إذ أنه لا يتكلم، وهي لا تسمع.

امرأة أخرى تأتي وهي ترّقص حوضها بطريقة مثيرة، مرتدية ثوباً ضيقاً وشفافاً بعز البرد!، شاب رشيق، وسيم ومتأنق كممثل إعلانات، يحتضن امرأة سمينة جداً وقصيرة كما لو كانت بالوناً، عجيب كيف يختلف البشر بأذواقهم وبكل شيء!

امرأة صفراء ترتدي الكمامات، وتخشى العدوى من مرض لا أدري ما هو وليس هناك مرض شائع الآن، ترى هل رحل لها أحدهم بمرض السارس فآلت على نفسها أن ترتدي الكمامات في كل مطارات العالم؟

عجوز تتحدث بتلفونها الموبايل لمدة ساعة، أراها سعيدة جداً، وكأنها تجلس بحفلة عرس، وأنا أجلس متذكرة نافع، وعيناه اللتان لن أنساهما حتى الموت ونظرته المليئة بالشك، والجنون، والغضب ساعة انقلابه إلى وحش.

أجلس بلا أية فكرة عما سيكون لي في قادم الأيام، يحزنني أنني سأترك الوطن.

أترك ملاعب الطفولة، الذكريات، النخيل، الأهل، الأصدقاء، البيوت النبيلة، الجيران، اللهجة الحبيبة،الساحات المضيئة بالشمس.

ليس هذا فقط بل سأترك الذكريات الموجعة، أترك الفجائع واللاأمان، أترك الوجع والإهانة، أترك هلع الإنفجارات، أترك رؤية الجثث والجنازات، أترك الأحقاد والصراعات.

كل شيء سيكون ماضياً عما قريب، فكل شيء يطردني ويبكيني، والطائرة ندّاهة وقحة.

غريبات ولكن!

لم تكن الشقة التي قرعت جرس بابها بعد سنوات سوى شقتهن، ذات البناية، وذات الشارع المكتظ بالعرب والغرباء، وذات الدولة الثرية العالية الأبراج، والباذخة بالمال الجاذب للبشر من كل حدب وصوب بالعالم ليعملوا، ويجدوا، ويبنوا، ويتعايشوا مع بعض وكلّ يحمل هموماً وأحلاماً وما لا يحصى من الأسرار..

قلت لأسأل عن البنات اللواتي بحن لي ببعض أسرار حيواتهن بكل براءة وثقة بي، كنت أتوق لمعرفة أخبارهن.

فتحت لي الباب شابة تتثاءب منزعجة من صوت الجرس، بين النوم واليقظة تلملم شالاً وضعته على كتفيها لتخبئ قميص نوم شفافاً، مع أن الساعة الثانية ظهراً لكنها تتحدث بصوت خفيض قائلة:

آسفة جميع البنات نائمات.

أحرجتُ بعض الشيء فسألت عن أسماء معينة للبنات اللواتي عرفتهن قبلاً، من ساكنات الشقة فقلت:

هيام، فريدة، أمل، أماني.. إلخ

أنكرت الشابة هذه الأسماء قائلة لا أعرفهن وربما كنّ يستأجرن مكاننا، ثم أضافت:

كنت سأقول لك تفضلي لولا أن الكل نائم فنحن نعمل ليلاً وننام نهاراً.

نزلت من البناية، وإذا بأحد معارفي من الأدباء القاطنين تلك البلاد منذ سنين، قال أراك هنا هل تعرفين أحداً في هذا المكان، فأخبرته عن بنات يسكن في الطابق السادس في هذه البناية وأشرت له، فاستغرب كما لو أنه رأى ما يروعه، وقال هل تعرفين البنات في تلك الشقة؟

قلت كنت أعرف بناتاً يسكنّ هنا قبل سنوات معرفة سطحية بل لم ألتقيهن سوى مرة واحدة عن طريق المصادفة.

فقال مستنكراً ووجهه يخبئ ما لا يفسر:

النسوة بتلك الشقة لا يجب عليك معرفتهن، أنهن منحرفات جميعاً، والشقة معروفة للجميع بأنها شقة داعرات، ومنذ سنين.

فوجئت بهذا الخبر، قال أنهن يعملن في الملاهي ليلاً حتى الصباح، قلت من عرفتهن لم يكن هكذا بل هناك مساعدة طبيب، ومهندسة، ومدرسة، قال ربما كانت الشقة لنساء بعضهن جئن

لحاجتهن للعمل بشرف كما الآلاف هنا، لكن الآن فهذه الشقة مشبوهة وأنا علي واجب تنبيهك.

عندها استطعت تفسير نومهن بالنهار.

من مفكرتي

أسفت لأن الدنيا تغيرت، وبات اللهاث وراء المال يسترخص كل شيء، حتى الكرامة، الإنسان بهذا الفعل يهين الحياة التي تنحط يوماً بعد آخر بانتهاك قدسيتها.

ليس هناك ما هو مقدس أكثر من الحياة، والحياة هي الروح، وحين يلغي الإنسان روحه ويصبح جسداً وسلعة، ينتهك كل شيء ولَم يبق لديه ما يخشى عليه بعد فينتهي، يتشيّء، ويصبح جماداً للبيع، رجلاً كان أم امرأة، والجماد لا وطن له، وهو لا يحس بمعنى الوطنية، لكن الأرواح وحدها هي التي تبقى تلهف وترفرف صوب الجمال والأوطان.. مثل الطيور!

انتهت في

2019-3-3